كونان دويل

مذكرات شرلوك هولمز

أروع الروايات البوليسية







روايات الهلال



روائع القصص العالمي

روايات الهلال

REWAYAT AL-HILAL

تصدر عن (دار الهلال) شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٨٩ * مايو ١٩٥٦ * شوال ١٣٧٥

No. 89 * May 1956

بيانات ادارية

ثمن العدد فى مصر والسودان ٧٠ مليما — فى الأقطار العربية عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ٩٠ قرشا سوريا — فى لبنان ٩٠ قرشا لبنانيا — فى الأردن ٩٠ فلسا — فى العراق ٩٠ فلسا

قيمة الاشتراك عن سنة (١٢ عددا) : فى القطر المصرى والسودان ٧٠ قرشا صاغا — فى سوريا ولبنان (بالطائرة بواسطة شركة فرج الله فى بيروت) ٩٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا — فى المملكة السعودية والعراق والأردن وليبيا ٩٠ قرشا صاغا — فى الامريكتين ٤ ١/٢ دولارات — فى سائر انحاء العالم ١٢٢ قرشا صاغا أو ٢٥ شلنا

طريقة الدفع

فى مصر والسودان : نقدا او بموجب اذونات او حوالات بريدية او شيكات — **فى خارج القطر المصرى :** بموجب حوالة مصرفية على احد بنوك القاهرة او حوالة نقدية (Money Order) او الى احد وكلائنا اذا كان هناك وكيل . **ولا يمكن قبول اذونات البريد او أوراق البنكنوت**

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك — القاهرة

المكاتبات : روايات الهلال — بوستة مصر العمومية — مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاعلانات : يخاطب بشأنها قسم الاعلانات بدار الهلال

مذكرات شرلوك هولمز

ست قصص بوليسية يرويها الدكتور
واطسون زميل شرلوك هولمز

تأليف

الروائي الأشهر

أرثر كونان دويل

ترجمة دار الهلال

مؤلف الرواية

كان السير آرثر كونان دويل طبيبا قبل ان يصبح كاتبا ويتفرغ لتأليف الروايات البوليسية . ولعل اكثر الناس تأثيرا فى حياته هو الدكتور « جوزيف بل » أستاذه الذى تلقى عليه بعض فروع الطب وهو طالب ، والواقع ان هذا الاستاذ هو الذى حفزه فيما بعد الى ابتكار شخصية شرلوك هولمز ، واتباع طريقة الاستنتاج والتحليل التى امتاز بها ، وهو اذ ابتكر هذه الشخصية الروائية قد جعلها على طراز أستاذه هذا شكلا وموضوعا . فمن حيث الشكل كان الدكتور « بل » طويل القامة نحيل الجسم له عينان كعينى الصقر . ومن حيث الموضوع كان دقيق الملاحظة للدرجة القصوى

وقد كتب عنه كونان دويل مقالا فى مجلة « ستراند » أورد فيها مثلين على قوة ملاحظته التى كان يطبقها على المرضى امام طلبته . فأما المثل الاول فيذكر كونان دويل انه قال لمريض : « انى ارى انك مدمن السكر ، فأنت تحمل زجاجة خمر فى جيب سترتك الداخلى » واتضح ان الرجل كان حقا من مدمنى المسكرات . واما المثل الثانى ، فيقول كونان دويل فى ذلك المقال ان استاذه نظر الى مريض حين دخل عنده فقال له توا : « انى ارى انك اسكاف » . ثم التفت الى طلبته وجعل يشرح لهم كيف عرف لأول وهلة صناعة ذلك الرجل ، فقد لحظ ان موضع الركبة من بنطلونه قد بلى ، وذلك حيث يضع الاسكاف عادة الحجر الذى يشتغل عليه

ثم يقول كونان دويل : « لقد ترك هذا فى نفسى اثرا كبيرا . ولم يغب الدكتور « بل » قط عن ذاكرتى بعد ذلك ، بل كنت دائما اتمثله بعينيه الحادتين النفاذتين ، وانفه الذى يشبه منقار النسر ، وملامحه التى تلفت الأنظار . وقد كان يجلس امامنا فى كرسيه ضاما أصابع

يده وكان حاذقا فى استعمالها . وكان شفيقا بطلابه يبذل قصارى جهده لتعليمهم ، فكان لهم نعم الصديق حتى اذا تخرجت وصرت طبيبا وسافرت الى افريقا ، كانت شخصيته البارزة وطريقته فى الملاحظة والتحليل تملأ خاطرى ، دون ان اتصور وقتئذ أن ذلك سوف يغرينى بأن اترك مهنة الطب الى كتابة الروايات البوليسية »



على ان السنوات التى قضاها الدكتـور كونان دويل فى ممارسة الطب كان لها ايضا تأثير كبير فى حياته المستقبلة ، فقد عرفته بالكثير من حقائق الحياة ، وامدته بالكثير من الذكريات والملاحظات ، واستطاع فى خلالها ان يطبق طريقة استاذه القائمة على ملاحظة كثير من الناس والحوادث والأحوال . وكما ابتكر شخصية شرلوك هولمز ، استعار هو لنفسه شخصية الدكتور جون ه . وطسن ليروى حوادث هولمز فى مذكراته كما تروى فى الصفحات التالية

وقد كتب الدكتور « جوزيف بل » بعد ذلك عن تلميذه الدكتور دويل فى مجلة « ذى بوكمان » ، وقدم لمقاله بالحديث عن اهمية قوة الملاحظـة فى الطب وفى الحياة ، ثم نقـد روايات شرلوك هولمز وبين ميزاتهـا على الروايات البوليسية الاخرى التى لا تقوم على قاعدة الملاحظة والتحليل والاستنتاج ، وقد يعرف القارىء نهايتها من قراءة بدايتها ... او يتوه فى حوادثها حتى اذا وصل الى آخرها يكون قد نسى أولها ! . وذلك على عكس روايات كونان دويل المتسلسلة الحوادث ، المتماسكة الفكرة ، القائمة على تفكير هادىء رصين ، قوامه العلم والمنطق



جواد السباق

-١-

روى الدكتور واطسون مساعد شرلوك هولمز فقال :

كنت جالساً مع شرلوك هولمز الى المائدة نتناول طعام الفطور فقال لى :

— أحسبنى ياواطسن سأضطر الى الذهاب الى دارتمور ، الى كنجزبيلاند

ولم أدهش من ذلك ، بل الواقع أنى كنت قبل ذلك أسائل نفسى : كيف لا يسهم بجهده فى تلك المشكلة التي كانت موضوع الحديث فى طول انجلترا وعرضها ؟

وكان قد قضى يوماً كاملا وهو يذرع أرجاء الغرفة ، وقد مال ذقنه فوق صدره ، وقطب حاجبيه ، وأخذ يملأ غليونه بأقوى أنواع الطباق ويفرغه ، صادفاً عن كل سؤال منى وملاحظة . وكانت لا تفوته أية طبعة حديثة من الصحف ، فكان يلقى عليها نظرة ، ثم يقذف بها فى ركن الحجرة . وبرغم صمته ، كنت أعرف ما يدور بخلده ، فقد كانت ثمة مشكلة واحدة تحتاج الى مواهبه ، وتلك هى اختفاء جواد السباق المشهور سيلفر بليز المرشح لكسب كأس وسكس ، ومقتل مدربه فى ظروف غامضة . حتى إذا صارحنى هولمز بعزمه على الذهاب الى مكان المأساة ، كان ذلك ما توقعته منه . وقلت له :

— يسرنى أن أصحبك ، إذا لم يكن فى ذلك ما يضايقك

— بل بالعكس : إن هذا يكون فضلا كبيراً منك ، ولن تضيع وقتك هباء ، فان فى هذه المشكلة نقطاً قد تجعلها من المشاكل الفريدة ، وعلينا الآن أن نسرع كى ندرك القطار المسافر من بادنجتون ، وسأزيد الأمر إيضاحاً لك فى خلال سفرنا ، ورجائى أن تحضر معك منظارك المقرب

وبعد ساعة تقريباً كنت قابعاً فى ركن عربة من عربات الدرجة الأولى بالقطار المسافر الى اكستر ، فى حين جلس شرلوك هولمز يقرأ عدة صحف حديثة كان قد اشتراها من بادنجتون ، وكان القطار قد غادر بلدة ردنج ، فرمى هولمز

آخر صحيفة منها مقعده ، وقدم لى علبة سجائره ، ثم نظر من النافذة ، ثم الى ساعته ، و، :

— إننا نسير بسرعة .... إن سرعة القطار الآن ثلاثة وخمسون ميلا ونصف فى الساعة

فقلت له :

— إنى لم ألتفت لقوائم المسافات على الطريق

— ولا أنا ، غير أن أعمدة التلغرافات على هذا الخط يبعد أحدها عن الآخر ستين ياردة ، ومن السهل عمل الحسبة .... لعلك قد قرأت نبأ مقتل جون ستريكر ، واختفاء الجواد سيلفر بليز ؟

— لقد قرأت ما نشرته جريدتا التلجراف والكرونيكل

— إنها إحدى القضايا التى تتطلب قوة الاستنتاج ، لغربلة الوقائع ، لا للوصول الى وقائع جديدة ، انها مأساة كاملة ، شاذة ، تهم عدداً كبيراً من الناس ، ولذا نعانى فيها كثرة الفروض ووفرة الاستنتاجات ، ووجه الصعوبة الآن هو تمييز الحقائق المجردة عن آراء النظريين وتنميق المخبرين . فاذا ثبتنا على هذا الأساس السليم ، صار واجبنا أن نتعرف النقط التى تدور حول المشكلة ، وأن نصل الى النتائج التي يمكن استخراجها .... لقد تسلمت مساء يوم الثلاثاء برقيات من الكولونيل روس صاحب الجواد ، ومن المفتش جريجورى المشرف على التحقيق ، وفيها يطلبان معاونتى ...

فصحت قائلا :

— يوم الثلاثاء ؟ ونحن الآن فى صباح الخميس ، لماذا لم تذهب أمس ؟

— لأنى ياعزيزى واطسن وقعت فى خطأ لايتوقعه منى من يقرأ مذكراتك ، فقد اعتقدت أن أشهر جواد للسباق فى انجلترا لا يمكن أن يبقى مختفياً زماناً طويلا ، وخصوصاً فى منطقة قليلة السكان مثل شمال دارتمور . ومكثت أمس أنتظر من ساعة الى أخرى أن يظهر الجواد ، وأن يتضح أن خاطفه هو الذى قتل مدربه جون ستريكر . ولكن لما طلعت شمس يوم جديد ، ولم يتم شىء

سوى القبض على الشاب فتزروى سمبسون ، أيقنت انه قد حان وقت العمل ، ومع هذا أشعر بأن أمس لم يذهب عبثاً

— إذن قد كونت لنفسك رأياً عن هذه المشكلة ؟

— إنى على الأقل قد جمعت بعض وقائعها الجوهرية ، وسأسردها لك ، لأنه لا شيء يوضح المشكلة مثل التحدث عنها لشخص آخر ، وأنت لا يمكنك معاونتي إلا إذا عرفت موقفنا منذ البداية

واستندت الى الوسادة التي خلف ظهرى وأخذت أدخن سيجاراً ، فى حين مال هولمز الى الأمام ، وأخذ بسبابته الطويلة يراجع الحوادث على راحة يده اليسرى . قال :

— إن الجواد سيلفر بليز هو من سلالة ايزونومى ، وقد حاز قصب السبق مراراً مثل جده . وهو الآن فى الخامسة من عمره ، وقد كسب لصاحبه السعيد الكولونيل روس عدة جوائز ، وكان الى وقت وقوع الكارثة ، الجواد المرشح لكسب كأس وسكس . والرهان عليه بمعدل ثلاثة الى واحد . وهو محبوب الجماهير ، ولم يخيب أمامها قط ، ومن هذا يتضح أن من صالح البعض أن يحال بينه وبين الاشتراك فى السباق يوم الثلاثاء المقبل

«ولم تخف هذه الحقيقة على القوم فى كنجز بيلاند ، حيث اسطبل التدريب الذى يملكه الكولونيل ، ولذا اتخذت كل حيطة لحراسة هذا الجواد القيم ، ومدربه جون ستريكر «جوكى» متقاعد ، كان يركب جياد السباق للكولونيل روس حتى زاد وزنه عن الحد المقرر . وقد خدم الكولونيل خمس سنوات بوصفه «جوكى» ، ثم سبع سنوات بوصفه مدرباً ، وكان دائماً الخادم النشط الأمين . ويساعده ثلاثة فتية ، لأن الاسطبل صغير نسبياً ، ولا يحوى سوى أربعة جياد . ويسهر أحد هؤلاء الفتية ليلا ، بينما ينام زميلاه فى الطابق الذى يعلو الاسطبل . والثلاثة مشهود لهم بالاستقامة . وجون ستريكر متزوج ، ويسكن فيلا صغيرة على مسافة مائتى ياردة تقريباً من الاسطبل . وليس له أولاد ، وعنده خادمة واحدة ، ويعيش عيشة رخاء . والمنطقة التى بها الاسطبل منطقة

موحشة ، ولـكن على بعد نصف ميل نحو الشمال توجد مستعمرة صغيرة من الفيلات ، شيدها أحد المقاولين فى تافيستوك للمرضى وغيرهم ممن يرغبون فى استنشاق الهواء النقى الذى امتازت به دارتمور . وتقع تافيستوك على بعد ميلين نحو الغرب ، ووراء الأحراش ، على بعد ميلين تقريباً ، اسطبل أكبر لتدريب الجياد فى كابلتون ، ويملـكه اللورد باكووتر ، ويديره سيلاس براون . وفيما عدا ذلك لاتجد وراء الأحراش سوى أرض فضاء لايسكنها إلا طوائف الغجر فى ترحالهم . وهكذا كان الموقف بوجه عام ليلة الاثنين الماضى حين وقعت الـكارثة

« وفى مساء ذلك اليوم ، كانت الجيـاد قد دربت وارتوت كالمعتاد ، وأغلقت أبواب الاسطبل فى الساعة التـاسعة مساء . وذهب اثنان من الفتية الثلاثة الى بيت المدرب حيث تناولا طعـام العشاء فى المطبخ ، فى حين مكث الثالث ــ ويدعى ند هنتر ــ للحراسة . وبعـد الساعة التاسعة بدقائق ذهبت الخادمة أديث باكستر اليه بعشائه وكان عبارة عن لحم ضأن بالبهار . ولم تأخذ معها سوائل لأنه توجد حنفية بالاسطبل ، ومن القواعد المرعية أن لا يشرب من عليه نوبة الحراسة ، أى نوع من الخمر . وكانت الفتاة تحمل مصباحاً ، إذ كانت الظلمة حالـكة ، والطريق يمر بالأحراش

« ولما صارت إديث باكستر على مسافة ثلاثين ياردة من الاسطبل ، ظهر رجل فى الظلام وصاح بها أن تقف . ولمـا صار فى دائرة الضوء المنبعث من المصباح رأت انه رجل عليه سمت السادة ، يرتدى بذلة رمادية اللون ، وعلى ساقيه طماق ، وفى يده عصا ثقيلة ذات كرة فى نهايتها . وقد راعها شحوب وجهه وهياج أعصابه ، وقدرت سنه بأكثر من ثلاثين سنة . وسألها تواً :

ــ أيمكنك أن تخبرينى أين أنا ؟ لقد كدت أفقد الأمل وأنام على أرض الأحراش حتى بدا لى المصباح الذى تحملينه

ــ انك قريب من اسطبلات التدريب فى كنجز بيلاند

ــ آه ، حقاً ؟ هذا من حسن حظى ، إنى أعلم أن أحد غلمان الاسطبل

ينام وحده هناك كل ليلة ، ولعلك تحملين الآن عشاءه اليه ، وأحسبك لا تغريك الكبرياء برفض مبلغ يكفى لشراء ثوب جديد لك ؟

وأخرج من جيب صديريته ورقة بيضاء مطوية ، وقال لها : « خذى هذه الورقة الى الغلام الذى ينام الليلة فى الاسطبل ، وسيكون لك أنفس ثوب يمكن أن يشترى بالمال »

« وقد أفزعها مظهر الجد البادى عليه ، فجرت نحو النافذة التى اعتادت أن تسلم الطعام من خلالها ، ولكنها وجدتها مفتوحة ، ورأت هنتر جالساً الى المائدة الصغيرة الموجودة بالداخل ، وشرعت تحدثه بما صادفها ، وإذا بذلك الرجل الغريب قد جاء ، وقال للفتى من خارج النافذة :

— عم مساء ... أريد أن أقول لك كلمة

« فرد عليه الفتى :

— ماذا تريد ؟

« — انها صفقة تكسب منها قدراً من المال .. لديك جوادان سيشتركان فى السباق على كأس وسكس ، وهما سيلفر بليز وبايارد ، فهل صحيح أن بايارد يسبق الآخر بمسافة مائة ياردة فى خمس مراحل فى خلال التدريب ، وأن الاسطبل قد راهن عليه ؟

« فصاح به الفتى :

— إذن أنت أحد أولئك الجواسيس الملاعين ؟ سأريك كيف نعاملهم فى كنجز بيلاند

« وقفز من مكانه وجرى عبر الاسطبل ليفك قيد كلب الحراسة، وهربت الفتاة نحو البيت ، ولكنها نظرت وراءها وهى تعدو ، فرأت الرجل الغريب منحنياً على النافذة ، ولكنه ما لبث حتى اختفى حين جاء هنتر بالكلب ، ولم يعثر له بعد ذلك على أثر »

وهنا سألت هولمز :

— حين خرج الفتى بالكلاب وراء ذلك الرجل الغريب ، هل ترك باب الاسطبل مفتوحاً ؟

فغمغم هولمز قائلا :

— هذا سؤال وجيه يا واطسن ، لقد قدرت أهمية هذه النقطة لدرجة أنى أرسلت برقية خاصة الى دارتمور للسؤال عنها ... واتضح أن الغلام أوصد الباب بالقفل قبل أن يغادر الاسطبل ، وأضيف الى ذلك أن النافذة ليست من الاتساع بحيث تسمح بمرور رجل منها

ثم استطرد هولمز يسرد وقائع الحادثة قائلا : « انتظر هنتر حتى عاد رفيقاه ، ثم بعث برسالة إلى المدرب ينبئه فيها بما حدث . وقد ثار ستريكر حين علم بالأمر وإن لم يبد أنه قدر خطره ، ولكنه على أى حال قلق ، ورأته المسز ستريكر حين استيقظت فى الساعة الأولى صباحاً ، واقفاً يرتدى ملابسه . ولما سألته عن الداعى الى ذلك أجاب بأنه لم يوافه النوم من القلق على جياده ، وإنه اعتزم الذهاب الى الاسطبل ليطمئن . فطلبت إليه أن لا يخرج إذ كان المطر يتساقط على زجاج النوافذ ، ولكنه لم يبال رجاءها وارتدى معطفه وغادر الدار

« واستيقظت المسز ستريكر فى الساعة السابعة صباحاً لتكتشف أن زوجها لم يعد بعد . وعلى ذلك ارتدت ثيابها بسرعة ، ونادت الخادمة ، وخرجت قاصدة الى الاسطبل ، فوجدت بابه مفتوحاً ، وهنتر مستغرقاً فى النوم على كرسى ، ومقصورة الجواد المحبوب خالية ، ولا أثر لمدربه !

« وعندئذ أوقظ الفتيان اللذان ينامان فوق الاسطبل ، ولما سئلا عما حدث قالا إنهما لم يسمعا شيئاً لأن نومهما ثقيل . وكان من الواضح أن هنتر تحت تأثير مخدر قوى ، ولما لم يمكن معرفة شىء منه ترك ليستوفى نومه ، فى حين خرج الفتيان والمرأة والفتاة للبحث عن المدرب والجواد ، وكان لديهم بقية أمل فى أن يكون ستريكر قد أخذ الجواد لتدريبه فى باكورة الصباح . ولكن لما صعدوا على ربوة تشرف على الأحراش كلها ، لم يجدوا أثراً للجواد ،

وإنما رأوا شيئاً آخر دلهم على وقوع مأساة : ذلك أنه على مسافة ربع ميل تقريباً من الاسطبل كان معطف جون ستريكر معلقاً على شجرة، وعلى مقربة وجدت جثته فى بقعة منخفضة من الأرض ، وكان رأسه محطما من ضربة قوية بسلاح ثقيل وفخذه مجروحة جرحاً طويلا بسلاح حاد . وكان من الجلى أنه دافع عن نفسه دفاعاً رهيباً ضد من هاجموه ، إذ كان بيده اليمنى مدية صغيرة ملوثة بالدم الى قبضتها ، وبيده اليسرى رباط رقبة من الحرير أحمر اللون أسوده ، وقد شهدت الفتاة بأن الرجل الغريب الذى لقيته فى الليلة الفائتة كان يرتدى رباط الرقبة هذا

« ولما أفاق هنتر من أثر المخدر شهد بأن ذلك الرجل هو صاحب رباط الرقبة نفسه ، وأكد أن الرجل دس المخدر فى لحم الضأن ، حين كان واقفاً بالنافذة ليجعله يغفل عن الحراسة تلك الليلة

« أما الجواد المفقود فقد كانت ثمة آثار حوافره فى الطين تشهد بأنه كان فى ذلك المكان وقت الصراع . ولـكنه اختفى منذ ذلك الصباح. ولم يعثر له على أثر رغم الاعلان عن جائزة كبيرة لمن يجده ، ورغم نشاط الغجر فى البحث عنه لنيل تلك الجائزة . وقد دل التحليل الذى جرى على بقية طعام السائس الحارس على وجود مقدار كبير من الأفيون المسحوق به ، هذا مع أن أهل الدار قد أكلوا من الطعام نفسه فى الليلة نفسها دون أن يحدث لهم تخدير

« هذه هى الوقائع الرئيسية للمشكلة دون أى فرض أو استنتاج. وسأذكر لك الآن ما فعله البوليس بشأنها :

« ان المفتش جريجورى ، الذى عهد إليه بهذه القضية ضابط كفء قدير ، ولو أنه وهب قوة التصور لكان له شأن كبير فى مهنته . وما ان وصل الى مكان الجريمة حتى وجد الرجل الذى اتجهت إليه الشبهات وقبض عليه . ولم يجد صعوبة فى الوصول إليه لأنه معروف فى الناحية . والظاهر أن اسمه هو فيتزروى سمبسون وهو رجل من أصل رفيع وعلى درجة كبيرة من التربية والتعليم ، وقد بدد ثروته على سباق الخيل وصار يعيش على المراهنات فى أندية

لندن على نطاق ضيق . وقد دل فحص دفتر مراهناته على أنه قد عقد مراهنات قيمتها خمسة آلاف جنيه ضد الجواد المسروق

«ولما قبض عليه اعترف بأنه قد جاء إلى دارتمور ليحصل على معلومات عن جياد كنجز بيلاند ، فضلا عن الجواد دسبرا الذى يلى سيلفر بليز فى الشهرة ، وهو فى عهدة سيلاس براون باسطبلات كابلتون . ولم يحاول أن ينكر ما فعله فى الليلة الماضية ، ولكنه قال إنه لم يكن يقصد سوءا وإنما أراد أن يحصل على معلومات أكيدة عن الجياد . ولما ووجه برباط الرقبة اصفر وجهه ولم يستطع تفسير وجود ذلك الرباط فى يد القتيل . وقد دلت ثيابه المبللة على أنه كان سائراً فى المطر فى الليلة الماضية . ووجدت له عصا مثقلة بالرصاص ، تصلح لأن تكون السلاح الذى حطم رأس المدرب . ولكن من جهة أخرى لم يوجد به أى جرح ، مع أن المدية الحادة التى وجدت بيد القتيل توحى بأن قاتله أو قتلته قد أصيبوا بها ... وهأنتذا يا واطسن ترى الظلمة المحيطة بهذا الحادث ، فاذا أمكنك أن تلقى عليه شيئاً من الضوء أكون شاكراً لك »

وقد أصغيت باهتمام الى كل ما ذكره هولمز عن هذه المشكلة بوضوحه المعهود . وكنت أعرف معظم تلك الوقائع ، ولكنى لم أكن قدرت أهميتها النسبية ولا ارتباطها بعضها ببعض ، قلت له :

— ألا يمكن أن يكون الجرح الذى أصاب ستريكر ناشئاً من مديته فى أثناء التشنجات التي تتبع الاصابة بالمخ ؟

— إن هذا أمر محتمل ... وفى هذه الحالة تنمحى نقطة هامة من النقط التى لصالح المتهم

— ومع هذا لا أدرك وجهة نظر البوليس

— إن أية نظرية نكونها عن هذه المشكلة قد تقوم عليها اعتراضات ... أما البوليس فمن رأيه أن فتزروى سمبسون قد استدرج السائس الحارس ، وكان معه مفتاح مصطنع ففتح به باب الاسطبل وأخذ منه الجواد بقصد اختطافه . وقد اختفت برذعته ، وهذا دليل على أن سمبسون كان قد وضعها

عليه . ثم ترك الباب وراءه مفتوحاً وقاد الجواد فوق أراضى الأحراش ، وإذا بالمدرب يفاجئه ، فنشب بينهما شجار ، وفى خلاله ضربه سمبسون بتلك العصا الثقيلة دون أن يصيبه أذى من تلك المدية الصغيرة التى كان ستريكر يدافع بها عن نفسه ، وبعد ذلك قاد اللص سيلفربلز إلى مكان خفى ليخفيه ، أو ربما فر الجواد أثناء ذلك الصراع وهو يتجول الآن فى الأحراش . هكذا ينظر البوليس الى المشكلة . وإذا كانت هذه النظرية غير محتملة ، فان كل نظرية أخرى غير محتملة كذلك . على أنى سأفحص المسألة عن كثب فى مكان الجريمة ، وحتى يتم ذلك أرانا غير قادرين على أن نصل إلى أبعد مما وصلنا فيها حتى الآن



وكان الوقت مساء حين بلغنا بلدة تافيستوك التى تقع وسط منطقة دارتمور . ووجدنا رجلين ينتظراننا بالمحطة ، أحدهما طويل القامة له شعر كشعر الأسد ، وعينان زرقاوان نفاذتان . والآخر صغير القد حسن الهندام على عينيه منظار . وهذا الأخير هو الكولونيل روس الرياضى المشهور . أما الأول فهو المفتش جريجورى الذى بدأ يكسب لنفسه شهرة فى عالم البوليس السرى

وقال الكولونيل لصاحبى : « يسرنى أنك جئت يا مستر هولمز . إن المفتش قد عمل كل ما يمكن عمله ، ولكنى أريد أن لا يُترك حجر الا قلب ، حتى يؤخذ بثأر ستريكر المسكين ، وأستعيد جوادى »

فسأله هولمز : « هل من تطورات جديدة ؟ »

ورد المفتش قائلا : « يؤسفنى أن أقول إننا لم نتقدم فى هذا الموضوع إلا قليلا . . . لدينا عربة مكشوفة تنتظر خارج المحطة ، ولا شك أنك تحب أن ترى المكان قبل أن يعم الظلام ، ويمكننا أن نتحدث أثناء الطريق »

وبعد دقيقة كنا جميعاً جالسين فى عربة خاصة تسير بنا خلال تلك البلدة العتيقة من بلاد ديفونشير ، وكان المفتش جريجورى متمكناً من قضيته ،

وأخذ يدلى الينا بسيل من ملحوظاته ، وهولمز صامت يسأل سؤالا موجزاً بين الفينة والفينة . أما الـكولونيل روس فقد مال الى الخلف وشبك ذراعيه وأسدل قبعته فوق عينيه ، فى حين كنت أصغى بانتباه إلى الحوار بين رجلى البوليس السرى . وكان جريجورى يشرح وجهة نظره كما بينها لى هولمز قبلا فى أثناء السفر بالقطار . ثم قال : « إن الشبكة محكمة حول فتزروى سمبسون وأعتقد أنه هو الرجل الذى ننشده ، على أنى أدرك أن الأدلة ليست قوية ضده ، وعلينا أن ننتظر ظهور وقائع أخرى »

فسأله هولمز : « وما رأيك فى المدية التي وجدت فى يد ستريكر ؟ »

— لقد انتهينا إلى أنه قد جرح نفسه بها أثناء سقوطه

— إن صديق واطسن قد رأى ذلك أيضاً ونحن فى الطريق إلى هنا ، وإذا كان الأمر كذلك فانها تكون دليلا ضد المدعو سمبسون

— بالتأكيد ، فانه لا يملك مدية وليس به أى جرح . . . إن الظروف تشهد ضده : فهو ذومصلحة كبيرة فى اختفاء الجواد ، وهو متهم بدس المخدر فى طعام السائس ، ولاشك أنه خرج وسط العاصفة وكان مسلحاً بعصا ثقيلة ، وقد وجد رباط رقبته فى يد القتيل . ربما كان ذلك كله كافياً لتقديمه للمحاكمة

فهز هولمز رأسه وقال : « إذا كان له محام قدير فانه يستطيع تفنيد كل هذه النقط . لماذا أخرج الجواد من الاسطبل ؟ إذا كان يريد به أذى فلماذا لم يؤذه وهو فى مكانه بداخله ؟ وهل وجد معه مفتاح مقلد للاسطبل حين فتش ؟ ومن هو الصيدلى الذى باعه الأفيون ؟ والأهم من كل ذلك : أين خبأ الجواد ، وبخاصة هذا الجواد المشهور ، وهو الرجل الغريب عن المنطقة ؟ خبرنى ماذا قال عن الورقة التي أراد إرسالها إلى الفتى مع الخادمة ؟ »

— لقد زعم أنها ورقة نقد بعشرة جنيهات . وقد وجدت فعلا ورقة من هذا القبيل فى كيس نقوده . على أن الصعاب التي ذكرتها الآن ليست بالخطر الذي حسبته : فهو ليس غريباً عن المنطقة ، فقد أقام فى تافيستوك أشهر الصيف . وأما الأفيون فربما جاء به من لندن . وأما المفتاح فلعله رماه جانباً

بعد أن أدى مهمته . وأما الجواد فربما كان مخبأ فى احدى الحفر أو فى منجم قديم

— وماذا قال عن رباط الرقبة ؟

— لقد أقر بأنه له وزعم أنه فقده . ولكن هناك عنصراً جديداً أدخل فى القضية وقد يؤدى إلى إثبات أخذه الجواد من الاسطبل

فأرهف هولمز أذنيه واستطرد المفتش جريجورى يقول : « لقد وجدنا آثار أقدام تدل على أن جماعة من الغجر قد عسكرت يوم الاثنين ليلا على مسافة ميل من موضع الجريمة ، ثم رحلت فى يوم الثلاثاء . أفلا يمكن أن يكون هناك تفاهم بين سمبسون وهؤلاء الغجر ، وأنه سلمهم الجواد بعد إذ اختطفه وأدركه المدرب ، وأن الجواد معهم الآن ؟

— حقاً إن هذا أمر ممكن الوقوع

— إن البحث يجرى الآن عن هؤلاء الغجر فى نواحى الأحراش . وقد فتشت أيضاً كل اسطبل وحظيرة فى تافيستوك ، فى مسافة قطرها عشرة أميال

— لقد سمعت أيضاً أن هناك اسطبلا آخر لتدريب الخيل على مقربة من هنا ؟

— أجل ، وهذا عامل لا ينبغى لنا أن نغفله . ولما كان جواد أصحاب هذا الاسطبل المسمى دسبرا هو التالى للجواد المفقود فى المراهنات ، فان لهم مصلحة فى اختفائه . والمعروف عن المدرب سيلاس براون انه قد راهن بمبالغ طائلة ، وهو من جهة أخرى لم يكن على صلة طيبة بستريكر المسكين . على أننا قد فتشنا ذلك الاسطبل فلم نجد به ما يتصل بالحادث عن قرب أو بعد

— ألم تجدوا شيئاً يربط بين سمبسون وبين مصالح اسطبل كابلتون ؟

— لا شىء مطلقاً

وعندئذ مال هولمز بظهره الى العربة وسكت عن الكلام ، ووقف بنا السائق أمام فيلا صغيرة مشيدة بالطوب الأحمر تقع على جانب الطريق ، وعلى مسافة منها بناء مستطيل ، وكانت الأحراش تمتد من هناك الى الأفق البعيد ،

ولا يقطع منظرها سوى أبراج تافيستوك ومجموعة مبان الى الغرب هى اسطبلات كابلتون . وهبطنا جميعاً من العربة ما عدا هولمز فقد ظل مسنداً ظهره الى الوسادة الخلفية وعيناه شاردتان فى الأفق ، مستغرقاً فى الفكر ، غافلا عما حوله . ولما لمسته بذراعى لكى أنبهه فزع وخرج من العربة وهو يقول للكولونيل روس : « معذرة ، لقد كنت أحلم أحلام اليقظة ! »

وكان فى عينيه بريق دلنى على أنه قد اهتدى الى سر من أسرار الحادث وإن كنت لا أدرى كنهه . ثم قال المفتش جريجورى : « أحسبك تريد أن تذهب تواً الى مكان الجريمة يا مستر هولمز ؟ »

— انى أوثر أن أبقى هنا قليلا لأفحص بعض الوقائع . لقد جىء بجثة ستريكر إلى هنا كما أظن ؟

— أجل ، إنها فى الطابق الأعلى . وستشرح غداً

— لقد كان فى خدمتك منذ سنوات يا كولونيل روس ؟

— أجل ، وكان دائماً مثال الخادم الأمين

— لعلك يا مفتش قد عملت بياناً بما وجد فى جيوبه وقت موته ؟

— إن الأشياء التى وجدت معه موضوعة الآن فى غرفة الجلوس إذا شئت أن تراها

— هذا يسرنى

فدخلنا جميعاً الى الغرفة الأمامية ، وجلسنا حول منضدة تتوسطها ، فى حين فتح المفتش جريجورى علبة من الصفيح وأخرج منها أشياء كدسها أمامنا ، وكانت عبارة عن موقد صغير وشمعة طولها بوصتان وأنبوبة وكيس صغير من الجلد به أوقية تبغ وساعة جيب فضية ذات سلسلة من الذهب، وخمسة جنيهات ذهبية وعلبة قلم رصاص من الألومنيوم ، وبعض أوراق ، ومدية ذات مقبض من العاج لها سلاح دقيق لا ينثنى ، عليها اسم « ويس وشركاه بلندن »

وقال هولمز وهو يرفع هذه المدية ويفحصها بعناية : « هذه مدية عجيبة... أحسبنى أرى عليها أثر دم ، ولعلها هى التي وجدت فى يد القتيل...هذه المدية

يا واطسن تدخل فى مهنتك »

فقلت له : « إنها ما نسميه مدية كَتَرَكْتَه »

— حسبتها كذلك . انها سلاح دقيق صنع لعمل دقيق ... ومن عجب أن يحملها رجل خرج لمثل تلك المهمة التي خرج من أجلها المدرب ليلة مصرعه ! وخصوصاً أنها لا تنطوى فى جيبه !

ثم قال مفتش البوليس : « لقد كان على طرفها قرص من الفل وجدناه بجانب الجثة . وقالت زوجة القتيل ان هذه المدية مكثت أياماً وهى موضوعة على خوان الزينة (التسريحة) وأن زوجها أخذها معه حين غادر البيت فى تلك الليلة . انها سلاح لا يجدى كثيراً فى الدفاع عن النفس ، ولكن لعله لم يجد غيرها فى تلك الساعة »

فقال شرلوك هولمز : « هذا أمر محتمل ، وماذا عن هذه الأوراق ؟ »

— ان ثلاثاً منها هى كشوف حسابات « فواتير » من تجار الدريس موقعاً عليها باستلام القيمة . وواحدة أخرى تحوى تعليمات من الكولونيل روس . والورقة الباقية تحوى قائمة حساب لتاجرة ثياب نسائية وقيمة ذلك الحساب سبعة وثلاثون جنيهاً وخمسة عشر شلناً باسم مدام ليزوزيه بشارع بوند موجهة الى وليم داربيشير . وقد قالت مسز ستريكر أن وليم داربيشير هذا هو من أصدقاء زوجها ، وأن خطاباته كثيراً ما كانت ترسل بعنوان القتيل

واطلع هولمز على ورقة الحساب هذه ثم قال : « يبدو لى أن زوجة داربيشير هذا مولعة بشراء الأشياء الغالية الثمن ! فالحق أن اثنين وعشرين جنيهاً ثمن فادح لثوب واحد ! وأياً كان الأمر لم يبق هنا ما نعرفه بعدما عرفناه ويمكننا الآن أن نذهب الى مكان الجريمة »

وإذ خرجنا من غرفة الجلوس تقدمت امرأة من حيث كانت تنتظر بالممر ولمست بيدها كم مفتش البوليس . وكان وجهها نحيلا شاحباً وعلى ملامحها دلائل القلق ، وقالت : « هل قبضتم عليهم ، هل وجدتموهم ؟ »

— كلا يا مسز ستريكر . وها هو ذا المستر هولمز قدجاءمن لندن ليعاوننا ،

وسنبذل قصارى جهدنا

ونظر إليها هولمز ثم قال : « لاشك يا مسز ستريكر أننا تقابلنا قبل اليوم فى بليموث فى حفلة بحديقة ! »

— كلا يا مستر هولمز ، لقد خانتك ذاكرتك

— وكنت ترتدين ثوباً مزركشاً بريش النعام

— إنى لم أرتد قط ثوباً بهذا الوصف

فاعتذر لها هولمز عن خطئه ، ثم تبع مفتش البوليس الى خارج البيت وسرنا مسافة قصيرة فى الأحراش حتى وصلنا الى الحفرة التي وجدت بها الجثة ، وقد قامت عند حافتها تلك الشجرة الصغيرة التى وجد المعطف معلقاً بها. وقال هولمز : « لقد فهمت أنه لم تهب ريح قوية فى تلك الليلة »

— كلا ، وإنما هطل مطر غزير

— وفى هذه الحالة علق أحد الناس ذلك المعطف بالشجرة ولم تحمله الريح إليها !

— أجل . لقد وضع على الشجرة !

— وأنا ألاحظ على الأرض آثار أقدام كثيرة ؟ لابد أن أناساً عديدين قد جاسوا خلال هذه البقعة منذ ليلة الاثنين الماضى !

— لقد وضعت قطعة حصير فى جانب هنا ودسنا عليها جميعاً

— هذا بديع !

وهنا قال مفتش البوليس : « عندى هنا فى هذا الكيس الحذاء الذى كان يلبسه ستريكر وحذاء فتزروى سمبسون وحدوة للجواد سيلفر بليز »

فقال هولمز :

— يا عزيزى المفتش : إنك كل يوم تتفوق على نفسك !

وتناول هولمز الكيس ثم هبط الحفرة وأزاح الحصيرة الى موضع وسط فيها ثم تمدد عليها وقد أسند ذقنه الى يديه وأخذ يفحص آثار الأقدام فوق الوحل . ثم صاح بغتة : « ما هذا ؟ »

وكان قد عثر على عود ثقاب مطلى بالشمع وقد احترق نصفه وغطاه الوحل حتى بدا كأنه قطعة صغيرة من الخشب

فقال المفتش : « لا أدرى كيف فاتنى أن ألحظه ! »

— لقد كان لا يُرى إذ كان مدفوناً فى الوحل ، وأنا إنما وجدته لأنى بحثت عنه

— ماذا تقول ؟! هل كنت تتوقع العثور عليه !

— كنت ضعيف الأمل فى الوصول إليه

ثم أخرج الحذائين من الكيس وأخذ يضاهيهما على آثار الأقدام التى على الأرض . ثم صعد الى حافة الحفرة ومضى بين الشجيرات، فقال له المفتش: « لا أظن أنا سنجد آثار أقدام أخرى ، فقد فحصت الأرض بعناية الى مسافة مائة ياردة من كل اتجاه »

قال هولمز : « حقاً ؟ إذن لا أجرؤ على أن أفحصها بعدك . ولكنى أريد أن أمشى قليلا فى الأحراش قبل أن يعم الظلام حتى أعرف طريقى غداً ، وسأضع حدوة الحصان هذه فى جيبى لعلها تجلب لى الحظ الحسن »

وكان الكولونيل روس قد أبدى قلقه حيال هدوء هولمز وتأنيه فى عمله، فنظر فى ساعته ، ثم قال لمفتش البوليس : «أرجو منك أن تأتى معى ، فهناك عدة نقط أريد أن أستشيرك فيها ، وخصوصاً حذف اسم الجواد سيلفر بليز من بين أسماء الجياد التى ستتسابق على الكأس . إنى أشعر بأن هذا واجب علينا نحو الجمهور »

فصاح هولمز فى حزم : «لا تفعل ذلك . فانى لو كنت مكانك لأبقيت اسم الجواد حيث هو »

فانحنى له الكولونيل بأدب وقال له : «شكراً لك على ابداء رأيك ياسيدى... ستجدنا فى بيت ستريكر المسكين بعد أن تنتهى من جولتك ، وعندئذ نركب

العربة معاً الى تافيستوك »



وذهب مع مفتش البوليس فى حين صحبت هولمز الى الأحراش . وكانت الشمس قد بدأت فى المغيب وراء اسطبلات كابلتون ، وكان السهل المنبسط أمامنا قد صبغ بلون الذهب . غير ان زميلى كان لاستغراقه فى الفكر غافلا عن هذا المنظر الطبيعى الرائع ، وما لبث أن قال لى : « ان المسألة هكذا يا واطسن : يمكننا أن نترك مؤقتاً مسألة البحث عن قاتل ستريكر ونقصر اهتمامنا على مصير الجواد . افرض انه هرب فى أثناء المأساة أو على أثرها ، فالى أين يذهب ؟ إن الحصان بغريزته يحب الاجتماع بالخيل ويكره الوحدة . فلنبدأ من هذا الفرض لنرى الى أين يقودنا . ان هذا الجزء من الأحراش هو كما قال المفتش جريجورى قاحل جاف ولكنه يؤدى الى اسطبلات كابلتون ، ويمكنك أن ترى من هنا ان ثمة حفرة مستطيلة قد بلل المطر أرضها ليلة الاثنين الماضى . فاذا كان فرضنا صحيحاً فلا بد أن يكون الجواد قد عبر تلك الحفرة . فعلينا الآن أن نبحث عن آثار حوافره فيها »

وكنا نمشى مسرعين ونحن نتحدث ، وبعد دقائق معدودة وصلنا الى تلك الحفرة . وسرت كما طلب الىّ هولمز ، نحو اليمين ، وسار هو نحو اليسار ، ولكننى لم أخط خمسين خطوة حتى سمعته يصيح ورأيته يلوح لى بيده ... لقد كانت آثار حوافر الجواد واضحة على الأرض الرخوة أمامه ، وطابقت الحدوة التى فى جيبه تلك الآثار تماماً

ثم قال لى : « انظر الى فائدة التصور !. انه هو الذى يعوز المفتش جريجورى ، لقد تصورنا ما يمكن أن يكون قد حدث ، وعملنا وفق هذا التصور ، والآن وجدنا اننا كنا على صواب . هيا بنا ! »

وعبرنا الحفرة ثم سرنا نحو ربع ميل على أرض جافة ، وبعد ذلك انحدرت الأرض أمامنا فعدنا نرى آثار أقدام الجواد . ثم فقدناها زهاء نصف ميل حتى وجدناها مرة أخرى قرب اسطبلات كابلتون . وكان هولمز أول من رآها ،

فبدت على ملامحه فرحة الظفر ووقف يشير اليها . وكان الى جانبها آثار قدمى رجل . فقلت له : « لقد كانت آثار الجواد قبل الآن تدل على انه كان يجرى وحده ! »

— أجل . لقد كان وحده قبل ذلك ... ولكن ما هذا ؟

ورأينا اتجاه آثار الأقدام ينحرف نحو الطريق المؤدى الى كنجز بيلاند فتبعناها مسافة ، وكان هولمز لا يحيد يبصره عنها . واتفق انى نظرت جانباً فدهشت إذ رأيت تلك الآثار نفسها وقد عادت فى الاتجاه المضاد

ولما لفت نظر هولمز الى ذلك سر كثيراً وقال لى : «لقد وفرت علينا مشياً طويلا كان سيؤدى بنا الى تتبع آثار أقدامنا نحن ... هيا بنا نتبع آثار العودة»

ولم نذهب بعيداً، فقد انتهت تلك الآثار الى رصيف من الأسفلت يصل الى بوابة اسطبلات كابلتون . ولما اقتربنا منها جرى نحونا سائس وقال لنا : « لا نريد متسكعين هنا ! »

فقال له هولمز وقد وضع أصابعه فى جيب سترته : « إننا نريد أن نسأل سؤالا واحداً ... هل نكون مبكرين إذا زرنا المستر سيلاس براون فى الساعة الخامسة صباح غد ؟ »

— لا بأس ياسيدى . فانه يصحو مبكراً . ولكن هاهوذا ياسيدى ويمكنك أن تسأله بنفسك ... كلا يا سيدى ... انه يفصلنى من الخدمة إذا رآنى آخذ نقوداً من أحد ... فيما بعد إذا شئت ...

فأعاد هولمز نصف الجنيه الى جيبه ، وفى اللحظة نفسها رأينا رجلا بادى الشراسة يخرج من البوابة وفى يده كرباج صيد يلوح به ، وصاح بالسائس قائلا : « ماهذا يا دوسن ؟ لا نريد ثرثرة هنا ... اذهب الى عملك ... وأنتما ماذا تريدان ؟ »

فقال له هولمز بأرق صوت : «نريد أن نتحدث معك عشر دقائق ياسيدى العزيز »

— ليس عندى وقت للتحدث مع كل عابر سبيل ... نحن لا نريد غرباء

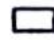
هنا . هيا اذهبا وإلا سلطت عليكما كلباً

فمال هولمز الى الأمام وهمس ببضع كلمات فى أذن ذلك المدرب ، وسرعان ما بان عليه الفزع واحمر وجهه وصاح قائلا : « هذا كذب !

— حسناً . أنتناقش هنا علناً ، أم ندخل فى غرفة الجلوس ؟

— ادخلا إذا شئتما

فابتسم هولمز وقال لى : « لن أبقيك هنا سوى بضع دقائق يا واطسن . والآن يامستر براون أنا تحت تصرفك »



بعد نحو عشرين دقيقة عاد هولمز والمدرب ، وقد دهشت للتغير الذى طرأ على الأخير ، فقد حل الخوف عنده محل الشراسة وصار العرق يتصبب من جبينه ، وسار الى جانب هولمز كالكلب المطيع ، وسمعته يقول له : « ستنفذ تعليماتك بحذافيرها »

فقال له هولمز : « يجب أن لا يحدث أى خطأ »

فأومأ سيلاس براون برأسه موافقاً ، وقد رأى نذير الشر فى عينى هولمز وقال :

— كلا لن يحدث خطأ ، سيكون هناك ، هل أغيره أولا ؟

ففكر هولمز لحظة ثم قال :

— كلا . لاتفعل ... وسأكتب اليك بهذا الشأن ... ولكن حذار من الخداع وإلا ...

— يمكنك أن تثق بى ...

— ويجب أن ترعاه يومئذ كما لو كان لك

— يمكنك أن تعتمد علىّ ...

— أحسبنى أقدر أن أثق بذلك ... حسناً ... سيصلك منى نبأ غداً

ثم استدار هولمز غافلا عن اليد المرتعشة التى مدها الرجل لمصافحته ، وسرت معه قاصدين الى كنجز بيلاند ، وقال لى فى أثناء الطريق :

— لم أجد قط مثل سيلاس براون هذا . فهو مزيج من التبجح والجبن

— إذن فالجواد عنده ؟...

— لقد حاول أن ينكر ، ولكنى ذكرت له مافعله ذلك الصباح بالتفصيل حتى أيقن انى كنت أراقبه . وأنت طبعاً قد لحظت آثار الأصابع المربعة العجيبة على الأرض ، وحذاؤه ينطبق عليها تماماً . ثم ان أى تابع له ما كان يستطيع أن يفعل ما فعله ... لقد ذكرت له كيف أنه وفق عادته ، كان أول من خرج صباحاً فرأى جواداً يجول فى الأحراش ، وكيف أسرع نحوه وكيف دهش إذ عرف من جبهته الغراء انه ذلك الجواد المشهور الذى يستطيع وحده أن يسبق جواده الذى راهن عليه . ثم ذكرت له كيف كان أول خاطر له أن يعيده الى كنجز بيلاند ، وكيف ان الشيطان أغواه بأن يخفيه حتى ينتهى السباق ، وكيف قاده وخبأه فى اسطبلات كابلتون . ولما قلت له هذه التفاصيل عدل عن الانكار ولم يفكر إلا فى إنقاذ نفسه

— ولكن البوليس فتش اسطبلات كابلتون !

— إن من كان مزيف جياد قديماً مثل سيلاس براون لن تعوزه الحيلة

— ولكن ألا تخشى أن تترك الجواد الآن لديه فى حين ان مصلحته تقتضى إيذاءه ؟

— ياصديقى العزيز : ثق انه سيحافظ عليه كما لو كان إنسان عينه . إنه يعلم ان أمله الوحيد فى الرأفة به هو أن يظهر الجواد أسلم ما يكون

— يخيل الىّ ان الكولونيل روس ليس ممن يرأفون !

— إن الأمر لايتعلق بالكولونيل روس ... إنى أتبع طرقى الخاصة بى ، وأبدى الكثير أو القليل من خفايا الأمور كما يحلو لى ، وهذه ميزة كونى غير موظف بقوة البوليس السرى ... ولعلك لحظت ان الكولونيل لم يكن شديد المجاملة لى ... فالآن أريد أن أتسلى قليلا على حسابه ... لا تقل له شيئاً عن الجواد

— لن أقول له شيئاً إلا باذنك

— وبالطبع هذا كله أمر ثانوى بالنسبة لمعرفة قاتل جون ستريكر

— وأنت ستقصر جهدك الآن على البحث عنه ؟

— بل بالعكس . سنعود معاً الى لندن بقطار المساء !

وقد عجبت لذلك ، فاننا لم نمض فى ديفونشير سوى بضع ساعات ، فكيف يتخلى عن تحقيق بدأه بتلك البراعة ؟ على انى لم أستطع ان أغريه بقول كلمة واحدة حتى عدنا الى بيت المدرب الذى مات ، ووجدنا الكولونيل والمفتش ينتظراننا بغرفة الجلوس ، وقال لهما هولمز : « انى وصديقى عائدان الى لندن بقطار منتصف الليل »

ففتح المفتش فاه دهشة ، وقال الكولونيل ساخراً : «إذن قد يئست من القبض على الشخص الذى قتل ستريكر ؟ »

فهز هولمز كتفيه وأجاب : «هناك صعاب جمة تعترض ذلك . على انى وطيد الأمل فى أن يشترك جوادك فى السباق يوم الثلاثاء ، وأرجو أن تأمر الجوكى بأن يستعد ، هل يمكننى الحصول على صورة فوتوغرافية للمستر جون ستريكر؟»

فأخرج المفتش صورة من غلاف فى جيبه وأعطاه إياها ، وعندئذ قال له هولمز : «ياعزيزى جريجورى : كأنك تتوقع كل ما أحتاج اليه ! والآن أرجو أن تنتظرنى هنا لحظة فان عندى سؤالا أريد جواباً عنه من الخادمة »

ولما غادر هولمز الغرفة قال الكولونيل روس دون احتياط للمفتش جريجورى :

— إنى أقر بأن مستشارك هذا الذى جاء من لندن قد خيب أملى ، فانى أرى اننا لم نتقدم خطوة منذ جاء !

فقلت له :

— انك على الأقل قد كسبت توكيده لك بأن جوادك سيشترك فى السباق!

فرد الكولونيل وهو يهز كتفيه :

— أجل ... لقد أكد لى ذلك ... ولكنى كنت أوثر أن أستعيد الجواد على أن أسمع هذا التوكيد !

وهممت بأن أرد عليه مدافعاً عن صديقى ، وإذا بهذا قد عاد الى الغرفة وما لبث حتى قال :

— والآن ياسادتى ، أنا على تمام الاستعداد للذهاب الى تافيستوك

ولما صعدنا الى العربة أمسك أحد فتيان الاسطبل ببابها لنا . وكأنما خطر لهولمز خاطر فمال نحو الفتى وقال له :

— لديكم عدد من الغنم فى حظيرة السباق . فمن الذى يرعاها ؟

— أنا ياسيدى !

— ألم تلحظ عليها شيئاً غريباً فى المدة الأخيرة ؟

— أجل يا سيدى ، فقد أصيبت ثلاثة منها بالعرج فى الأيام الأخيرة

وبدا لى ان هولمز قد سر حين سمع ذلك . والتفت الى مفتش البوليس وقال له :

— انى أسترعى انتباهك الى هـذا الوباء الذى انتشر أخيراً بين الغنم ، هيا ياحوذى سق بنا !

وكان الكولونيل روس لا يزال يظهر قلة تقديره لهولمز ، غير أن مفتش البوليس اهتم بهذه الملاحظة الأخيرة منه وقال له :

— أتحسب ذلك أمراً هاماً ؟

— هاماً للغاية ؟

— وهل من نقطة أخرى تريد أن تلفت نظرى اليها ؟

فقال له هولمز :

— الموقف العجيب الذى وقفه الكلب ليلة الحادث

— إن الكلب لم يفعل شيئاً فى تلك الليلة !

فأجاب هولمز : هذا وجه الغرابة !



بعد ذلك بأربعة أيام كنت راكباً القطار مع شرلوك هولمز قاصدين الى ونشستر لنشهد سباق الخيل لنيل كأس وسكس . وقابلنا الكولونيل روس

خارج المحطة بناء على موعد ، وركبنا عربته الى حلبة السباق فى خارج المدينة.
وكان بادى الجد قليل المجاملة . وما لبث حتى قال لهولمز :

— لم يعد جوادى الىّ !

فقال له هولمز :

— أحسبك تعرفه إذا رأيته ؟

فتكدر الكولونيل وأجاب قائلا :

— لقد مكثت أعنى بشؤون السباق عشرين سنة دون أن يوجه الىّ مثل هذا السؤال ! ان الطفل يمكنه أن يعرف سيلفر بليز بغرته البيضاء وساقيه الأماميتين المرقطتين !

— وكيف تسير المراهنات ؟

— هذا ما يدهشنى . لقد كان الرهان أمس خمسة عشر الى واحد . أما اليوم فهو ٣ الى ١

فغمغم هولمز قائلا :

— من الواضح أن بعض الناس يعرف خفية الأمر !

ولما رفع العلم نظرت الى اللوح الذى كتبت عليه أسماء الجياد المتسابقة فقرأت اسم سيلفر بليز بينها . وما لبث الكولونيل روس ان صاح قائلا : « ولكنى لا أراه بين الجياد ! »

فقال له هولمز : « لم تمر سوى خمسة جياد . لا بد انه السادس »

وإذ قال ذلك اندفع أمامنا جواد قوى كُمَيْت (أى لونه بين الأسود والأحمر) حاملا على ظهره لونى الكولونيل المعر ة فى عالم السباق وهما الأسود والأحمر . فصاح الكولونيل قائلا :

— ليس هذا جوادى ... إن هذا الجواد ليست به شعرة واحدة بيضاء ... ماذا فعلت يامستر هولمز ؟ هل أبدلت به جواداً آخر ؟

— صبراً حتى نرى كيف يجرى

ونظر هولمز بمنظارى المقرب ثم صاح قائلا : «هذه بداية رائعة !.. انها

تجرى الآن عند المنحنى ! »

وكنا نرى الجياد من مكاننا دون عائق وكانت تجرى متقاربة وكأنها جسد واحد ، حتى إذا بلغت منتصف الطريق الينا صار اللون الأصفر الذى هو شارة اسطبلات كابلتون فى الطليعة . ولكن قبل أن تصل الينا سبقه جواد دسبرا ثم اندفع جواد الكولونيل فصار الأول مخلفاً الجواد الثانى وراءه بستة أطوال، وصار الجواد ايزيس الذى يملكه دوق بلمورال هو الثالث

وقال الكولونيل روس وهو يضع يده على عينيه :

— إنه جواد يحمل شارتى على أى حال ، غير أنى أقر بأنى لا أدرك شيئاً من الأمر . ألا ترى انك أخفيت عنى السر مدة أطول مما ينبغى يامستر هولمز؟

— ستعرف كل شىء يا كولونيل . والآن هيا بنا نذهب الى حيث نستطيع أن نلقى نظرة على الجواد من كثب

وذهبنا الى مقصورة الوزن حيث لا يدخل إلا اصحاب الجياد ومدعووهم .. وهناك قال هولمز للكولونيل :

— ما عليك إلا أن تغسل وجه الجواد وقدميه الأماميتين بالكحول فترى انه هو سيلفر بليز بنفسه

— انك تدهشنى !

— لقد وجدته فى يد مزيف وأبحت لنفسى أن أدخله فى السباق بلونه الجديد . . .

فقال له الكولونيل بحماسة :

— يا سيدى العزيز : لقد أتيت بالخوارق ! إن الجواد يبدو فى أحسن حال ولم يجر قط فى سباق مثل جريه اليوم ! إنى أعتذر إليك إذ ارتبت فى مقدرتك ... لقد أديت لى خدمة عظيمة إذ أعدت جوادى إلىّ . ولكنك تؤدى لى خدمة أعظم إذا وضعت يدك على الذى قتل جون ستريكر

— لقد فعلت !...

فنظرنا إليه مندهشين وقلنا له معاً :

ـــ قبضت عليه ؟ أين هو ؟

ـــ انه هنا !

فقال له الـكولونيل متعجباً :

ـــ هنا ؟ أين ؟

ـــ انه معنا الآن !

فبان الغضب على وجه الـكولونيل وقال :

ـــ انى أقرأ بأنى مدين لك بالفضل يا مستر هولمز ، ولـكنى أعد ما قلته الآن إما نكتة غير لائقة أو إهانة !

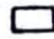
فضحك شرلوك هولمز وقال له :

ـــ أؤكد لك أنى لم أقصد أن أنسب تلك الجريمة إليك يا كولونيل ... ان القاتل الحقيقى هو الواقف الآن خلفك !

وتراجع هولمز إلى الوراء ووضع يده على سيلفر بليز . فصاح الـكولونيل يقول :

ـــ الجواد !

ـــ أجل . الجواد . ومما يخفف ذنبه أنه ارتكب تلك الجريمة دفاعاً عن النفس ... إن جون ستريكر لم يكن أهلا للثقة التى وضعتها فيه ... ولـكن ها هو الجرس يدق . ولما كنت قد راهنت على الشوط التالى فانى أرجىء الايضاح الى وقت مناسب آخر .



وفى مساء ذلك اليوم كنا منفردين فى ركن بعربة بولمان فى القطار المسافر الى لندن ، وخيل إلينا ـ أنا والـكولونيل روس ـ أن مدة السفر قد قصرت ونحن نصغى الى رفيقنا وهو يشرح لنا سلسلة الحوادث التى وقعت فى اسطبل التدريب فى ليلة الاثنين ، ويبين لنا الطرق التى اتبعها للوصول إلى أسرارها ، قال :

ـــ أعترف أن كل نظرية كنت قد كونتها لنفسى من هذا الحادث على

أساس ما كتبته الصحف كانت خاطئة ، ومع ذلك كان فيما نشرته دلالات ، لولا أن غطت قيمتها تفاصيل أخرى ليست ذات شأن، وقد ذهبت الى ديفونشير وأنا موقن أن فيتزروى سمبسون هو المجرم ، وإن كنت قد رأيت أن القرائن التي ضده ليست كافية

« وفى الفترة التى بقيت فيها بالعربة ، بعد أن وصلنا الى بيت المدرب ، بدت فجأة أهمية وضع المخدر فى اللحم الذى أكله الحارس . وقد تذكر يا واطسن أنى كنت وقتئذ شارد الذهن وأنى مكثت بالعربة أفكر بعد نزولكما منها . لقد كنت أعجب من نفسى كيف غفلت عن مثل هذا الدليل القوى ! »

وهنا قال الكولونيل : « لا أدرى كيف كانت هـذه النقطة تعاوننا فى الأمر ! »

فرد هولمز قائلا : « لقد كانت الحلقة الأولى فى سلسلة الاستنتاج . ان الأفيون المسحوق له مذاق وإن لم يكن كريهاً . فاذا مزج بأى لون عادى من ألوان الطعام فان الآكل لابد أن يلحظ وجوده فلا يأكل مزيداً من الطعام، ولكن البهار الهندى قوى لدرجة يخفى معه مذاق ذلك المخدر، ولا يمكن بأى حال أن يكون فيتزروى سمبسون الغريب تماماً عن المنطقة هو الذى أوصى أسرة المدرب بوضع ذلك البهار فى الطعام تلك الليلة ... ومن غير المعقول أن يكون قد جاء بمسحوق الأفيون فى تلك الليلة بالذات التى أضيف فيها البهار الى اللحم ليخفى مذاقه ... وعلى ذلك استبعدت سمبسون من المسألة ، وقصرت اهتمامى على ستريكر وزوجته ، فانهما هما وحدهما اللذان اختارا لحم الضأن مع البهار الهندى للعشاء فى تلك الليلة ... وقد أضيف الأفيون المسحوق الى الطبق الذى سيرسل الى الحارس ، لأن الآخرين أكلوا من اللحم نفسه فى تلك الليلة دون أن يخدروا . فمنذا الذى كان يستطيع وضع المخدر فى اللحم دون أن تراه الخادمة !

« وقبل أن أبت فى هـذه النقطة بدت لى أهمية سكوت الكلب وعدم نباحه . لقد دلنى مجىء سمبسون الى الاسطبل على أن هناك كلباً نبح حين

رآه . ولكن أحداً من الناس جاء بعد لحظة وأخذ الجواد من مكانه دون أن يغرى ذلك الكلب بالنباح ... لاشك إذن أن هذا الزائر كان شخصاً يعرفه الكلب ويألفه !

« وعلى ذلك أيقنت أن جون ستريكر هو الذى ذهب الى الاسطبل فى وسط الليل وأخذ سيلفر بليز ، ولكن لأى غرض أخذه ؟ لغرض غير شريف بلا ريب . والا فلماذا خدر الحارس قبل ذلك ؟ ومع هذا لم أتوصل الى معرفة غرضه وقتئذ . وأنا أعرف أن بعض المدربين يأخذون رشاً ضخمة لإيذاء جيادهم حتى لا تكون السابقة ... وأحياناً يكون المرتشى هو راكب الجواد « الجوكى » ... وأحياناً أخرى تتخذ وسائل خفية أكثر دهاء من ذلك . وقد أملت أن أعرف السر من مخلفات المدرب القتيل

« والواقع أن أملى هذا قد تحقق . فانكما تذكران تلك المدية الدقيقة التى وجدت فى يده ، وهى سلاح لا يمكن أن يختاره رجل عاقل للدفاع عن نفسه ، وكما قال الدكتور واطسن أن هذا السلاح إنما يستخدم فى العمليات الجراحية الدقيقة . وأنت تعلم من خبرتك بشؤون السباق ، أن فى الامكان عمل حز خفيف فى وتر العضل باحدى أفخاذ الجواد . ويكون ذلك تحت الجلد بشكل لا يلحظه أحد فيما بعد . والجواد الذى يحدث ذلك يصيبه عرج طفيف قد ينسب إلى الاجهاد فى التدريب أو الى مرض الروماتيزم »

وهنا صاح الكولونيل قائلا : « يا له من وغد لئيم ! »

واستطرد هولمز قائلا : « وفى هذا تفسير للدافع الذى جعل جون ستريكر يخرج الجواد من الاسطبل الى الأحراش البعيدة ، فان مثل ذلك الجواد الحساس كان جديراً بأن يوقظ النيام إذا لمست المدية جسده فى الاسطبل ، فكان لزاماً عمل ذلك فى العراء »

وعاد الكولونيل فصاح قائلا : « لقد كنت أعمى ! ولهذا احتاج الى ثقاب مشمعة ليرى على ضوئها ! »

« بلا ريب . على أنى حين فحصت مخلفاته كان من حسن طالعى أنى لم

أ كشف الطريقة التى ارتكبت بها الجريمة فحسب بل كذلك الغرض منها . وأنت تعرف يا كولونيل أن الانسان لا يحمل فى جيبه كشوف الحسابات الخاصة بغيره ، فان معظمنا له ما يكفيه من كشوف الحسابات الخاصة به ... وقد أدركت تواً أن ستريكر كان يعيش عيشة مزدوجة وأن له بيتاً ثانياً . وقد دلتنى طبيعة كشف الحساب الذى وجدته بين مخلفاته على أن هناك امرأة غالية المطالب ... وأنت يا كولونيل مهما تسخ على خدمك فلا ينتظر من أحدهم أن يشترى لزوجته ثوباً ثمنه اثنان وعشرون جنيهاً !.. وقد سألت المسز ستريكر عن ذلك الثوب دون أن تدرك قصدى من السؤال ، فاستوثقت من أنها لاتعلم عنه شيئاً ، وكنت قد كتبت عنوان محل الأزياء لأقصد إليه ومعى صورة فوتوغرافية لجون ستريكر !

« ومنذ ذلك أضحى كل شىء واضحاً ... فقد قاد ستريكر الجواد الى حفرة كيلا يظهر منها الضوء . وكان سمبسون حين هرب قد سقط منه رباط رقبته فالتقطه ستريكر ولعله رآه يصلح لأن يقيد به ساق الجواد . وفى الحفرة وقف وراء الجواد وأشعل الضوء ، فذعر الجواد من هذا الضوء المفاجىء وغلبت عليه غريزة الحيوان عند الخطر الداهم فقفز من مكانه وصدمت الحدوة الصلب التى باحدى أقدامه ، رأس ستريكر صدمة قوية . وكان ستريكر قد خلع معطفه برغم المطر لكى يسهل عليه انجاز تلك العملية الدقيقة . وفى أثناء سقوطه من أثر تلك الصدمة مست المدية فخذه ... هل هذا واضح ؟

فقال الكولونيل : « كل الوضوح حتى لكأنك كنت هناك تشهد ما يحدث ! »

واستطرد هولمز قائلا : « وخطر لى أن رجلا فطناً مثل ستريكر لا يمكنه أن يقدم على مثل هذه العملية الدقيقة إلا إذا كانت له تجارب سابقة . فعلى أى شىء كان يمكنه أن يجربها ؟ ووقع بصرى على تلك الخراف ، فلما سألت عن أى حادث خارق يمكن أن يكون قد حدث لها ، أجاب الفتى بذلك العرج الذى أصاب بعضها . وعندئذ تحقق ظنى

« ولما عدت الى لندن ذهبت الى محل الأزياء فعرفت صاحبته ستريكر من صورته الفوتوغرافية ، وقالت إنه عميل هام يدعى « داربيشير » وأن له زوجة اعتادت شراء الثياب الغالية . ولست أشك فى أن هذه المرأة قدأغرقته فى الديون فعمد الى هذه المؤامرة على الجواد »

وهنا قال الكولونيل :

— لقد أوضحت كل شىء يا مستر هولمز . ولكن أين كان الجواد طول هذا الوقت ؟

— لقد هرب فعنى به أحد جيرانك . ها قد وصلنا الى محطة كلافام وسنكون فى محطة فكتوريا بعد عشر دقائق ، وإذا رأيت أن تدخن سيجاراً فى مسكننا يا كولونيل فانى يسعدنى أن أذكر لك ما تريده من تفصيلات أخرى



الأحدب

— ٢ —

فى مساء أحد أيام الصيف ، بعد بضعة أشهر من زواجى ، كنت جالساً فى بيتي أدخن غليوناً وأقرأ فى رواية ، بعد يوم مجهد فى العيادة . وكانت زوجتى قد أوت إلى فراشها فى الطابق الأعلى ، ودلنى صوت إغلاق باب الردهة على أن الخدم أيضاً قد ذهبوا إلى فراشهم . ونهضت من مقعدى أريد أن أذهب إلى غرفة النوم ، وإذا بى أسمع رنين الجرس . فنظرت إلى الساعة ، وكانت الثانية عشرة إلا ربعاً ، فعجبت من زائر يأتى فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، وقلت لنفسى لعله مريض جاء يستشيرنى ، وعلى ذلك خرجت إلى الردهة ، وفتحت الباب ، وما كان أشد دهشتى حين رأيت أن القادم هو شرلوك هولمز ، فقال لى :

— آه يا واطسن ، لقد خشيت أن تكون قد نمت . . . !

— يا صديقى العزيز . أرجو منك أن تدخل أولا

— تبدو عليك الدهشة لمجيئى فى هذه الساعة . آه : إنك ما زلت تدخن طباق اركاديا الذى كنت تألفه وأنت عزب . لقد عرفته من هذا الرماد العالق بسترتك . . . إن من اليسير أن يلحظ الانسان أنك اعتدت ارتداء بذلة عسكرية ، ولن تبدو رجلا مدنياً تماماً ما دمت تحمل منديلا فى كمك . . . والآن أيمكننى أن أبيت لديك الليلة ؟

— بكل سرور

— لقد أخبرتنى قبلا أن لديك غرفة لضيف واحد ، ولست أرى لديك الآن زائراً ، وحامل القبعات هذا يشهد بذلك

— يسرنى أن تبقى معنا الليلة

— شكراً لك ، مما يدعو إلى الأسف أن دخل بيتك عامل بريطانى ، فانه نذير السوء . . . لعلها المجارى ؟

— كلا ، بل الغاز

— آه ، لقد ترك حذاؤه علامة مسمارين على الشمع ... كلا ، شكراً لك ، لقد تناولت عشاء فى محطة ووترلو ، ولكنى لا أمانع فى تدخين غليون معك

فقدمت له علبة الطباق ، وجلس تجاهى ، وأخذ يدخن صامتاً فترة من الوقت ، وكنت موقناً أنه لم يدفعه إلى زيارتى فى تلك الساعة سوى مشكلة هامة ، ولذا صبرت حتى يتحدث عنها ، وضحك ضحكة مكتومة ثم قال :

— لى ميزة الوقوف على عاداتك يا واطسن ، فانك إذا عدت مريضاً قريباً من هنا ذهبت اليه سيراً على الأقدام ، وإلا ركبت عربة . والآن لما كان حذاؤك مستعملا ، دون أن يكون قذراً ، فهذا دليل على أنك كثير العمل فى هذه الأيام ، إلى حد يغريك بركوب عربة . . .

— صدقت ، هذا بديع !

— بل قل إن هذا الاستنتاج هو شىء بدائى أقرب إلى التهويش ، مثله كمثل بعض قصصك المنمقة التى تحتفظ فيها يبعض عوامل المشكلة دون أن تفضى بها إلى القراء ، وأنا الآن فى مثل موقف هؤلاء القراء ، لأنى أمسك بيدى خيوطاً عديدة لمشكلة معقدة للغاية ، ولكن يعوزنى خيط أو اثنان لكى تتم نظريتى ، وسأحصل عليها يا واطسن . . . سأحصل عليها !

ولمعت عيناه ، واحمر وجهه ، وهو يقول ذلك ، ولكنه سرعان ما استعاد ملامح الجمود ، وعاد كدأبه ، أشبه بأحد الهنود الحمر ، مما جعل الكثيرين يحسبونه أدنى إلى الآلة منه إلى البشر

ثم استطرد يقول :

— للمشكلة التى أنا بصددها ظواهر شائقة ، بل يمكننى أن أقول إنها شائقة بشكل غير عادى . وقد بحثت فيها فعلا ، واتضح لى طريق حلها ، فاذا شاركتنى فى مرحلتها الأخيرة كنت بذلك عوناً كبيراً لى

— إن هذا من دواعى سرورى

— أيمكنك أن تذهب غداً إلى الدرشوت ؟

ـــ أجل ، ويستطيع جاكسون أن يحل محلى فى العيادة

ـــ حسناً ، أريد أن أركب قطار الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق من محطة ووترلو

ـــ إن هذا يترك لى فسحة من الوقت

ـــ إذا لم تكن الآن راغباً فى النوم ، فانى أذكر لك ما حدث ، وما بقى علينا أن نعمله

ـــ لقد كنت ميالا للنوم قبل مجيئك ، أما الآن فانى يقظ للغاية

ـــ سأوجز القصة دون أن أغفل أية نقطة هامة بها ، وربما تكون قد قرأت شيئاً عنها . . . إنها تتعلق بما زعموه عن مقتل الكولونيل باركلى من رويال مالوز فى الدرشوت

ـــ إنى لم أسمع شيئاً عن ذلك

ـــ إن المسألة لم تثر الاهتمام بعد إلا فى نطاق محلى ، ولم يمض عليها سوى يومين . وهاك وقائعها :

« إن « رويال مالوز » ـ كما تعلم ـ هى إحدى الفرق الايرلندية التى اشتهرت فى الجيش البريطانى ، وقد استبسل رجالها فى حرب القرم ، وفى ثورة الهند . ومنذ ذلك كسبت لنفسها شهرة جديدة فى كل مناسبة . وكانت حتى ليلة الاثنين الماضى تحت إمرة جيمس باركلى ، وهو ضابط قديم بدأ حياته العسكرية كجندى بسيط ، ثم منح رتبة ضابط جزاء له على بسالته فى حرب الثورة الهندية ، وهكذا صار بعد حين قائداً للفرقة التى كان فيها من قبل مجرد نفر

« وكان الكولونيل باركلى قد تزوج وهو برتبة جاويش ، وزوجته التى كان اسمها قبل الزواج المس نانسى ديفوى ، كانت ابنة جاويش بالفرقة نفسها ، ولذا وجد الزوجان بعض الصعوبة حين ارتفعت مكانتهما الاجتماعية فجأة ، ولكنهما لم يلبثا حتى واءما بين نفسيهما وبين مجتمعهما الجديد ، وصارت المسز باركلى محبوبة من نساء الضباط ، كما صار زوجها محترماً منهم .

ويمكنني أن أضيف إلى ذلك أنها امرأة بارعة الحسن ، حتى انها الآن - بعد أن انقضى زهاء ثلاثين عاماً - لا تزال فاتنة

« والظاهر أن الحياة العائلية للكولونيل باركلى وزوجته كانت سعيدة باطراد ، ويؤكد الماجور مورفى - الذى حصلت منه على معظم هذه المعلومات - أنه لم يسمع قط بنشوب خلاف بينهما ، على أنه يعتقد أن حب الكولونيل لزوجته الحسناء أقوى من حبها له . وكان يبدو عليه القلق إذا غاب عنها ولو يوماً واحداً ، أما هى فانها ، وإن تكن مخلصة أمينة له ، فانها لم تكن تظهر مثل هذا الحب لزوجها ، ولكنهما كانا - على أى حال - يعدان فى الفرقة نموذجاً للزوجين السعيدين فى أوسط العمر ، ولم يحدث قط فى حياتهما العائلية شىء يعد الأذهان للمأساة التى وقعت أخيراً

« والظاهر أن للكولونيل باركلى طباعاً غريبة : فقد كان شجاعاً جسوراً ، ولكنه كان أحيانا يبدى القسوة وحب الانتقام . على أن زوجته لم تر منه قط هذا الجانب . وهناك شىء آخر لفت نظر الماجور مورفى وثلاثة ضباط حادثتهم ، وهو الكآبة التى كانت تنتابه أحياناً . وقال الماجور فى ذلك إن الابتسامة كانت تنمحى بغتة من فمه ، كما لو كانت بفعل يد خفية ، وذلك فى وسط محافل السرور ، وبين النكات على مائدة الضباط ، وقد تستمر نوبة الكآبة معه أياماً متوالية . ولم يلحظ زملاؤه الضباط عليه سوى ذلك ، وبعض الميل إلى الخرافات ، وقد بان تعلقه بها فى كرهه أن يبقى وحده ، وخصوصاً فى الظلام ، وكان ذلك مثار تعليقات كثيرة ، وخصوصاً أنه معروف بالرجولة والشجاعة

وكانت فرقة رويال مالوز مرابطة فى الدرشوت منذ بضع سنوات ، ويعيش الضباط المتزوجون مع أسرهم فى ثكنات ، وكان الكولونيل طول الوقت يسكن مع زوجته فيللا تدعى « لاشين » ، على بعد نصف ميل تقريباً من المعسكر الشمالى ، ويقع البيت وسط حديقته ، ولكن الجانب الغربى منه لا يبعد سوى ثلاثين ياردة من الطريق العام . وينحصر الخدم فى حوذى

وخادمتين ، وهؤلاء مع الكولونيل وزوجته ، هم كل ساكنى فيلا «لاشين» . لأن الزوجين لم ينجبا أطفالا ، ولم يكن لديهم ضيوف مقيمون

« والآن ، أذكر لك ماحدث بين الساعة التاسعة والعاشرة من مساء يوم الاثنين الماضى :

« يظهر أن مسز باركلى كاثوليكية المذهب ، وأنها ساهمت فى تكوين جماعة سانت جورج ، التي أسست لتزويد الفقراء بالثياب المستعملة ، وقد عقدت تلك الجماعة اجتماعاً فى الساعة الثامنة من ذلك المساء ، وأسرعت مسز باركلى فى تناول طعام العشاء ، لكى تحضر ذلك الاجتماع . ولما غادرت البيت سمعها الحوذى تقول كلاماً عادياً لزوجها ، تؤكد له أنها ستعود بعد وقت وجيز . ثم مرت على مس موريسون ، وهى شابة تسكن الفيلا المجاورة . وذهبت الاثنتان معاً إلى الاجتماع ، وقد دام أربعين دقيقة . وفى الساعة التاسعة والربع ، عادت مسز باركلى ، بعد أن تركت مس موريسون عند باب بيتها

« وتوجد فى فيللا « لاشين » حجرة للجلوس بها مصباح . وهى تواجه الطريق ، ولها باب زجاجى يؤدى الى الحديقة ، ويبلغ عرض هذه الحديقة ثلاثين ياردة ، ولا يفصلها عن الطريق سوى سور منخفض يعلوه قضيب من الحديد . وقد دخلت مسز باركلى تلك الحجرة عند عودتها ، ولم تكن الستائر مسدلة ، لأنه كان من النادر استعمالها مساء . وقد أشعلت مسز باركلى المصباح بنفسها ، ثم دقت الجرس ، ولما جاءت الخادمة جين ستوارت طلبت إليها أن تعد لها فنجان شاى ، وذلك على خلاف عادتها ، وكان الكولونيل جالساً فى غرفة الطعام . ولما سمع أن زوجته قد عادت ذهب إليها فى الغرفة . وقد رآه الحوذى يعبر الردهة ، ويدخل تلك الغرفة ، ثم لم يره أحد على قيد الحياة بعد ذلك !

« وجىء بالشاى المطلوب بعد عشر دقائق ، ولكن الخادمة حين اقتربت من الباب وهى تحمل الشاى ، دهشت إذ سمعت سيدها وسيدتها

يتشاجران بصوت مرتفع ، وقرعت الباب دون أن يرد عليها أحد ، وأدارت مقبض القفل ، ولكن الباب كان موصداً من الداخل. وعندئذ هرعت الفتاة الى الطاهية تخبرها بالأمر ، فجاءت هـذه معها برفقة الحوذى ، وصار الثلاثة يستمعون من الردهة الى الشجار الذى كان لا يزال مستعراً بين الكولونيل وزوجته . واتفقت أقوال الثلاثة على أنهم لم يسمعوا سوى صوت هذين الاثنين. وكان باركلى يتكلم بصوت منخفض وبكلمات موجزة فلم تسمع كلهـا ، أما زوجته فكانت على العكس ترفع صوتها ، فسمع الثلاثة من وراء الباب كل كلمة قالتها ، وكانت لا تفتأ تكرر قولها : «ياجبان!» ، وتقول : « ما الذى يمكن عمله الآن ؟ أعد إلىّ حريتى فانى لا أطيق أن أتنفس الهواء الذى تتنفسه» . ثم تقول : « يا جبان ، يا نذل ! » . وسمعت صيحة من الكولونيل ، أعقبها صوت سقوط جسم على الأرض ، تلته صرخة من السيدة ! وأدرك الحوذى أن مأساة قد حدثت ، فاندفع نحو الباب ليفتحه عنوة ، حيث كان الصراخ لا يزال ينبعث من داخل الحجرة ، ولكنه لم يتمكن من فتحه، وكانت الخادمة والطاهية فى حال من الرعب فلم تقدرا على معاونته، وخطر له خاطر مفاجىء ، فجرى نحو الحديقة من باب الردهة ، ومن هناك رأى جانباً من إحدى نوافذ الغرفة مفتوحاً ، ولعل ذلك كان من جراء حرارة الصيف ... وكان يسيراً عليه أن يقفز من النافذة الى الداخل . وكانت سيدته قد كفت عن الصراخ ، ورقدت على أريكة فاقدة الوعى ، فى حين كان الكولونيل ممدداً على الأرض بالقرب من حاجز الموقد ، وقدماه على حافة كرسى ، وحوله بركة من الدم وقد فارق الحياة !

« وكان أول عمل خطر للحوذى حين يئس من معاونة سيده ، أن يفتح الباب ، ولكنه دهش إذ لم يجد مفتاح القفل بالداخل ولا بأى مكان بالغرفة . فخرج ثانياً من النافذة ، وعاد ومعه شرطى وطبيب . واتجهت الشبهات الى الزوجة بالبداهة ، وكانت لا تزال غائبة عن رشدها ، فحملت الى غرفتها ، ثم وضعت جثة الكولونيل فوق أريكة ، وفحص مكان الجريمة فحصاً دقيقاً

« واتضح أن سبب موت الكولونيل هو قطع يبلغ طوله نحو بوصتين فى مؤخرة رأسه ، والظاهر أن هذا القطع نشأ من ضربة سلاح غليظ . وقد وجد بالفعل الى جانب الجثة مضرب من الخشب ذو مقبض من العظم . وكان لدى الكولونيل مجموعة من الأسلحة جمعها من البلدان التي حارب فى أراضيها . ومن رأى البوليس أن المضرب كان من قطع تلك المجموعة ، غير أن الخدم أنكروا أنهم رأوه من قبل ، وربما فاتهم أن يروه قبلا من بين الطرائف الكثيرة التى بالدار . ولم يجد البوليس فى الغرفة شيئا آخر يستحق الاهتمام ، سوى أن المفتاح لم يوجد قط ، لا عند المسز باركلى ، ولا بجيوب القتيل . وتطلب الأمر إحضار حداد من الدرشوت ليفتح الباب

« هكذا كانت الحالة – ياواطسن – فى صباح يوم الثلاثاء الماضى ، حين طلب إلى الماجور مورفى أن أكمل جهود البوليس ، وأحسبك تعترف بأن المسألة تثير الاهتمام حقاً ، غير أن ملحوظاتى لم تلبث حتي دلتنى على أنها أعجب مما ظننتها لأول وهلة

« وقبل أن أفتش الغرفة استجوبت الخدم ، ولكنى لم أعلم منهم أكثر من الوقائع التى ذكرتها لك ، على أن الخادمة « جين ستوارت » ذكرت نقطة هامة ، فأنت تذكر أنها حين سمعت صوت الشجار بين سيدها وسيدتها ، ذهبت وعادت ببقية الخدم ، وفى اللحظة التى كانت فيها وحدها ، لحظت أن صوتى الكولونيل وزوجته قد انخفضا حتى صارا لا يكادان يسمعان . ولما ضغطت عليها فى الاستجواب ، قالت إنها سمعت سيدتها تذكر اسم « دافيد » مرتين أثناء الشجار ، وهذه نقطة هامة ، لأنها قد تقودنا الى معرفة سبب الخلاف الذى نشب بينهما ، وأنت تذكر أن الاسم الأول للكولونيل هو جيمس لا دافيد

« وفى المسألة شىء ترك أثراً شديداً فى نفوس الخدم ورجال البوليس ، وهو أن الكولونيل حين مات كان مقلوب السحنة ، تدل ملامحه على شدة الرعب ، حتى أن أكثر من شخص أغمى عليهم حين رأوه . ولا شك أنه كان

قد رأى خاتمته أمامه ، فأفزعه ذلك . وهذا يتفق مع وجهة نظر البوليس ، إذا كان الكولونيل قد رأى زوجته تهجم عليه لتقتله ، ولا ينفى هذه النظرية وجود ذلك الجرح فى مؤخرة رأسه ، لأنه ربما يكون قد مال جانباً ليتقى الضربة ، ولم يمكن الحصول على معلومات من السيدة نفسها ، لأنها فقدت رشدها مؤقتاً من جراء اصابتها بحمى مخية

« وقد علمت من رجال البوليس ، أن مس موريسون - وهى التى كانت قد ذهبت الى الاجتماع مع مس باركلى - قد نفت علمها بسبب كدر صديقتها، عند عودتها الى بيتها

« وبعد أن جمعت كل هذه المعلومات يا واطسن ، أخذت أدخن عدة غلايين وأنا أفكر فيها محاولا أن أميز الغث منها والثمين ، ولا ريب أن أهم ظاهرة فى الموضوع هى اختفاء مفتاح الباب ، وعدم العثور عليه رغم دقة البحث عنه فى الغرفة ، وإذن لابد أنه قد أخذ منها ، ولكن لا يمكن أن يكون الكولونيل أو زوجته قد أخذه ، وهذا أمر واضح ، فلابد إذن أن يكون هناك شخص ثالث قد دخل من النافذة واختطف المفتاح ، وخطر لى أنى إذا فحصت الغرفة والحديقة بمزيد من العناية قد أعثر على أثر لذلك الشخص الخفى . وأنت تعرف طريقتى يا واطسن ، وقد اتبعتها بحذافيرها فى المسألة ، وانتهيت الى كشف آثار ، ولكنها تختلف كل الاختلاف عن تلك التى كنت أتوقعها ، فقد ثبت لى أنه كان هناك رجل فى الغرفة ، وأنه عبر الحديقة قادماً من الطريق العام ، واستطعت أن أحدد آثار قدميه فى الطريق عند النقطة التى تسلق فيها السور المنخفض ، ثم الحديقة ، وتحت النافذة ، حيث قفز الى داخل الغرفة . وبعض تلك الآثار واضح ، وبعضها ضعيف ، لا يكاد يرى . والظاهر أنه اندفع نحو الحديقة ، لأن آثار مقدمة حذائه أعمق من آثار كعبيه ، ولكنى لم أدهش من الرجل نفسه وإنما دهشت من رفيقه

— وهل كان له رفيق ؟

فأخرج هولمز فرخ ورق من جيبه ونشره بعناية على ركبته ، ثم سألنى :

— ماذا ترى فى هذا ؟

وكانت الورقة تحوى رسوماً لآثار أقدام حيوان صغير ، وقد ظهرت بها آثار خمس أصابع وأظافر طويلة ، ولا يزيد حجم الرسم كله على ملعقة حلوى فقلت له :

— إنه كلب

— هل سمعت قط بكلب يتسلق ستاراً ؟ لقد وجدت آثار أقدام هذا الحيوان على الستار

— إذن هو قرد

— ولكنها ليست آثار أقدام قرد !

— ماذا يكون إذن ؟

— إنه ليس كلباً ولا قطاً ولا قرداً ، ولا أى حيوان نعرفه . وقد حاولت أن أعرفه من مقاييسه ، وهاك أربعة آثار له ، حيث كان واقفاً بلا حركة . أنت ترى أنه لا يقل طوله عن خمس عشرة بوصة ، من مقدمته الى مؤخرته . أضف الى ذلك طول العنق والرأس ، فيتضح لك حيوان لا يقل طوله عن قدمين ، وربما يزيد على ذلك ، إذا كان له ذيل . ولكن انظر الآن الى هذا المقاس الآخر ، فان لدىّ طول خطوته وهو يمشى ، وهو لا يزيد على ثلاث بوصات ، وهذا دليل على انه حيوان طويل الجسم قصير الأقدام ، ولم يكن من حسن الذوق بحيث يترك شيئاً من شعره ... ولكن شكله العمومى هو كما وصفت لك ، وهو يستطيع أن يتسلق الستائر . وهو أيضاً من أكلة اللحوم

— وكيف عرفت ذلك !

— لأنه تسلق الستار ، فهناك قفص عصفور كنارى معلق بالنافذة ، والظاهر أنه أراد الوصول اليه

— إذن كان وحشاً ؟

— لو أمكننا أن نحدد فصيلته ، لساعد ذلك على حل المشكلة . وعلى أى

حال ، لقد كان من نوع العرسة أو القاقم ، ولكنه أكبر من أى واحدة رأيتها من هذا النوع

— ولكن ما شأنه بالجريمة ؟

— هذا أيضاً شيء غامض ، ولكنك ترى أننا وقفنا على معلومات كثيرة ، فنحن نعرف انه كان ثمة رجل واقفاً بالطريق يرقب الشجار الناشب بين الكولونيل وزوجته ، وأن الستائر كانت مرفوعة ، وأن الغرفة كانت مضاءة . ونحن نعرف أيضاً أن الرجل قد عبر الحديقة ودخل الغرفة ومعه حيوان عجيب ، وأنه إما أن يكون قد ضرب الكولونيل ، أو أن هـذا قد سقط رعباً حين رآه ، فصدم رأسه بطرف حاجز الموقد . وأخيراً لدينا تلك الواقعة العجيبة ، وهى أن ذلك الرجل قد أخذ معه مفتاح الباب حين رحل

قلت له :

— إن هذه الوقائع التي كشفتها قد جعلت المسألة أشد غموضاً عن ذى قبل

— هذا صحيح ، فانها دلتنى على أن المسألة أعمق مما حسبتها لأول وهلة . وقد فكرت فى الأمر ، فرأيت انه ينبغى لى أن أعالج الموضوع من زاوية أخرى ، ولكنى يا واطسن أحول بينك وبين النوم ، وكان فى استطاعتي أن أخبرك بهذا كله غداً فى طريقنا الى الدرشوت

— شكراً لك ، لا يمكنك الآن أن تتوقف ، بعـد أن مضيت كل هذه المراحل فى شرح المسألة

— الثابت أن المسز باركلى حين غادرت البيت كانت على صلة طيبة بزوجها ، انها لم تكن تبدى له الحب قط ـ كما أسلفت القول ـ ولكن الحوذى سمعها تتحدث مع قرينها بلهجة ودية . والثابت أيضاً أنهـا لدى عودتها الى البيت ، قصدت الى الغرفة التي تعرف انها لن تجد بهـا زوجها ، وانها طلبت لنفسها فنجان شاى ، كما تفعل امرأة هائجة الأعصاب ، حتى إذا دخل زوجها عندها تشاجرت معه . إذن فلا بد أن يكون قد حدث شيء بين السـاعة السابعة والنصف والساعة التاسعة ، من شأنه أن يغير شعورها نحو زوجها تغيراً كاملا.

ولكن مس موريسون كانت معها طول تلك الفترة من الزمن ، فمن المؤكد إذن انها تعرف شيئاً رغم إنكارها

«وخطر لى أنه ربما كانت هناك علاقة خفية بين هذه الشابة وبين الكولونيل الشيخ ، وانها اضطرت الى الاعتراف بتلك العلاقة لزوجته ، وكان ذلك يفسر غضب الزوجة وكذلك إنكار الشابة حدوث شيء ، وكان ذلك أيضاً يتفق مع الكلام الذى سمعه الخدم من وراء الباب ، ولكن مسز باركلى ذكرت خلال شجارها اسم « دافيد » ... ثم ان حب الكولونيل لزوجته ينافى ذلك الافتراض ، فضلا عن تدخل الرجل الآخر ، الذى قد لا تكون له صلة بما حدث قبلا ، لذلك عدت فرفضت فكرة وجود علاقة بين الكولونيل ومس موريسون ، ولكنى ازددت يقيناً بأن هذه الشابة تعرف الباعث الذى جعل مسز باركلى تبدى ذلك البغض لزوجها وتتشاجر معه ، لذلك كان لزاماً علىّ أن أزورها ، وأن أصارحها بأنى أعرف انها مطلعة على الحقيقة ، وأن أذكر لها أن صديقتها مسز باركلى قد تجد نفسها مدانة بتهمة قتل زوجها ، إذا لم تتضح الأمور على حقيقتها

« وقد وجدت مس موريسون فتاة صغيرة القد ، لطيفة المعشر ، لها عينان تنمان عن حياء ، وشعر أشقر ، ولكنها ذكية حصيفة الرأى . وبعد أن تحدثت اليها فكرت لحظة ثم بدا عليها العزم ، وأدلت الىّ باعتراف كامل ، ألخصه لك فيما يلى :

« قالت : « لقد وعدت صديقتي مسز باركلى بأن لا أقول شيئاً ، وأنا أحب أن أفى بوعدى . ولكن إذا كنت حقاً أستطيع أن أعاونها ، بعد أن أسندت اليها هذه التهمة الخطيرة ، وإذا كانت هى لا تستطيع دفاعاً عن نفسها ، لما هى فيه من مرض ، فانى أعتقد انى قد أصبحت فى حل من ذلك الوعد ، ولذلك سأقول لك ماحدث فى مساء يوم الاثنين الماضى :

« كنا عائدتين من الاجتماع فى الساعة التاسعة إلا ربعاً ، وكان علينا أن نمر فى طريقنا من شارع هدسن وهو شارع هادىء قليل الحركة ، وليس به

سوى مصباح واحد على جانبه الأيسر . ولما قربنا من ذلك المصباح رأيت رجلا قادماً نحونا وظهره كثير الانحناء ، وقد حمل صندوقاً على كتفه . وكان مشوه الجسم لأن رأسه كان منخفضاً وساقيه ملتويتان . ومررنا به فرفع رأسه قليلا ليرانا فى الضوء ، ثم وقف فى مكانه مشدوهاً وصاح : « رباه ! إنها نانسى ! » وعندئذ رأيت مسز باركلى وقد شحب وجهها حتى صار كوجوه الموتى ، وكادت تقع على الأرض ، لولا أن سندها ذلك الشخص المخيف،وكدت أنادى البوليس ، وإذا بصديقتى تحدث ذلك الشخص فى أدب ورفق وتقول له : « حسبتك فى عداد الأموات طول هذه السنين الثلاثين يا هنرى » ...

فأجاب قائلا : « لقد كنت أقرب الى الموتى منى الى الأحياء » !

« وقد ملأنى صوته رعباً ، ونظرت الى وجهه ، فرأيته وجهاً مخيفاً ، ولعينيه بريق ما زال يعاودنى فى أحلامى ، وقد وخط الشيب شعر رأسه وشاربه ، وكان بوجهه غضون ، جعلته أشبه بتفاحة جافة . ثم التفتت مسز باركلى إلىّ ، ثم قالت : « هيا بنا نسير قليلا يا عزيزتى ، إنى أريد أن أتحدث مع هـذا الرجل ، وليس هناك ما تخشينه » ... وحاولت أن تتكلم بجرأة ولـكنها كانت لا تزال شاحبة الوجه وشفتاها ترتعشان وهى تتكلم بصعوبة... وتحدثا معاً بضع دقائق ، ثم مضت فى الشوارع غاضبة والشرر يتطاير من عينيها ، ورأيت الرجل الأحدب الـكسيح واقفاً عند عمود المصباح ، وهو يهز قبضة يده فى الهواء وقد ثارت ثائرته . ولم تقل لى شيئاً حتى وصلنا الى باب بيتى ، وعندئذ أمسكت بيدى ، وطلبت إلىّ أن لا أنبىء أحداً بما رأيته . وقالت : « إنه صديق قديم ساءت حاله فى الحياة » . ولما وعدتها بأن لا أقول شيئاً قبلتنى ، ولم أرها بعد ذلك . ها أنا قد قلت لك الحقيقة ، وإذا كنت قد كتمتها عن البوليس ، فلأنى لم أكن أدرى وقتئذ حرج موقف صديقتى ، أما الآن ، فانى أدرك أن ذكر الحقيقة فى صالحها »

واستطرد شرلوك هولمز يقول : « هـذا ما قالته لى مس موريسون يا واطسن ، وقد كان لى بمثابة الضوء الذى بدد الظلام ، واتضحت لى الرابطة

بين وقائع كنت أجدها متفرقة ، حتى استطعت أن أكون فكرة مبهمة عن تسلسل الحوادث فى هذه المشكلة

« وكانت الخطوة التالية بالبداهة ، هى البحث عن الرجل الذى أحدث ذلك التأثير فى نفس مسز باركلى ، وإذا كان لا يزال فى الدرشوت ، فمن اليسير العثور عليه ، فليس هناك أناس كثيرون بذلك الوصف ، وأى شخص مشوه لا بد أن يلفت إليه الأنظار ، وقد قضيت يوماً فى البحث عنه ، وفى المساء . – أى فى هذا المساء – عثرت عليه . وهو يدعى هنرى وود ، ويسكن فى مسكن حقير فى نفس الشارع الذى لقى فيه السيدتين ، وكان قد جاء الى ذلك المكان منذ خمسة أيام فقط . وقد ادعيت أنى موظف فى مصلحة الاحصاء ، وتحدثت بهذه الصفة حديثاً شائقاً مع صاحبة البيت الذى يسكنه ، وعلمت أنه يشتغل حاوياً وممثلا ، وأنه يرتاد المشارب ليلا ليعرض ألعابه ويكسب رزقه . ويحمل معه حيواناً فى صندوق ، وتفزع صاحبة البيت من هذا الحيوان لأنها لم تر مثله من قبل ، وتقول إنه يستخدمه فى بعض الألعاب التى يعرضها . وقد ذكرت لى كل ذلك وأضافت إليه أنه يتكلم أحياناً بلغة غريبة ، وأنها فى الليلتين الأخيرتين سمعته يبكى وينتحب فى غرفته . والرجل فى رخاء ولا يعانى أى ضيق ، غير أنه أعطاها ضمن أجرة الغرفة ، قطعة عملة غريبة ، حسبتها زائفة . وقد أطلعتنى عليها ، فاذا بها روبية هندية

« من ذلك كله ترى موقفنا يا عزيزى واطسن ، وتدرك ما أريده منك . ومن الواضح أن ذلك الرجل الأحدب ، بعد أن افترق عن مسز باركلى ومس موريسون تبعهما عن بعد ، وأنه شهد الشجار الذى نشب بين الكولونيل وزوجته من خلال النافذة ، وأنه اقتحم الغرفة بعدئذ ، وأن الحيوان الذى يحمله قد خرج من صندوقه ... هـذا كله أمر لا شك فيه ، وهو الشخص الوحيد فى العالم ، الذى يمكنه أن يخبرنا بما حدث فى الغرفة بعد ذلك »

وهنا قلت لشرلوك هولمز :

ـــ هل تنوى أن تسأله ؟

ـــ لا شك ، ولكن بحضور شاهد

ـــ وأنا ذلك الشاهد ؟

ـــ إذا سمحت . وإذا أوضح لنا الأمر ، كان بها ، وإلا طلبنا القبض عليه

ـــ ولكن ما أدراك أننا سنجده فى مسكنه ؟

ـــ لقد اتخذت الحيطة ، فكلفت أحد غلمان شارع بيكر أن يراقبه ولا يتركه ، وسنجده فى شارع هدسن غداً . . . أما الآن ، فانى أكون مجرماً إذا حلت بينك وبين النوم لحظة واحدة أخرى



وكان النهار قد انتصف حين وصلنا إلى مكان المأساة ، وقادنى صديق تواً إلى شارع هدسن ، وبالرغم من مقدرته على إخفاء شعوره ، فقد كان يبدو عليه التأثر المكتوم ، فى حين كنت أشعر بذلك السرور الذى ينتابنى دائماً حين أصحبه فى مباحثه ، ثم قال أخيراً : « ها هو الشارع »

وكان شارعاً صغيراً قامت على جانبيه بيوت من الطوب ، كل منها مؤلف من طابقين . . . ثم قال : « آه ، ها هو سمبسون »

وجرى نحوه غلام صغير ، وقال له : « إنه فى البيت يا مستر هولمز » ، فربت هولمز رأس الغلام ، وقال له « حسناً يا سمبسون » . . . ثم التفت إلىّ وقال : « هيا بنا يا واطسن ، هاهو البيت »

وبعث بطاقته إلى الرجل الأحدب ، ومعها رسالة بأنه يريد لقاءه لمسألة هامة ، وبعد لحظة كنا معه ، وكان بالرغم من حرارة الجو منكفئاً على الموقد ، حتى صارت غرفته الصغيرة أشبه بأتون . وكان جالساً فى مقعده ملتوياً متكدساً بشكل يبين تشويه جسمه أبشع تشويه ، غير أنه ، حين أدار وجهه نحونا ، رأيته ، برغم ما فيه من نحول وغضون ، ينبىء عن وسامة فائقة فى عهد شبابه . ونظر الينا بارتياب ، وأشار إلى كرسيين لنجلس عليهما ، دون أن يقوم من مقعده . فقال له هولمز بلهجة ودية : « أنت مستر هنرى وود ، وقد

قدمت من الهند أخيراً كما أعتقد . . . لقد جئت اليك بشأن وفاة الكولونيل باركلى »

— وما شأنى بذلك ؟

— هذا ما جئت اليك لكى أستوثق منه ، ولعلك تدرك أنه إذا لم تتضح هذه المسألة ، فان من المحتمل جداً أن تحاكم مسز باركلى بتهمة قتل زوجها ، وهى كما أظن صديقة قديمة لك

فبان عليه الفزع حين سمع ذلك وقال :

— لست أدرى من أنت ، ولا كيف علمت ما تعلمه ، ولكن أقسم أن ما قلته لى الآن صحيح !

— إنهم ينتظرون حتى تعود إلى وعيها فيقبضوا عليها

— رباه ! هل أنت من رجال البوليس ؟

— كلا

— إذن مادخلك بهذه المسألة ؟

— إن من واجب كل مواطن أن يرى العدالة تجرى مجراها

— أؤكد لك أنها بريئة

— إذن أنت المذنب ؟

— كلا لست مذنباً !

— إذن من الذى قتل الكولونيل جيمس باركلى ؟

— إن القدر هو الذى قضى عليه ، ولكن ثق أنى لو كنت قد قتلته كما كان فى نيتى أن أفعل ، لنال قصاصه الحق منى . لعلك الآن تريد أن تعرف منى القصة كلها ؟ لامانع من أن أخبرك بها ، فليس فيها ما يشيننى بحال

وسكت لحظة ثم استطرد يقول :

— إنك يا سيدى ترانى الآن أحدب الظهر ملتوى الأعضاء ، ولكن مضى وقت كان فيه الأونباشى هنرى وود ، أوسم جنود فرقة المشاة السابعة عشرة بعد المائة . وكنا وقتئذ فى الهند ، نعيش فى مخيمات فى بلدة تدعى

بهورتى ، وكان باركلى الذى مات بالأمس جاويشاً بالفرقة نفسها ، وكانت نانسى ديفوى ابنة الجاويش ديفوى أجمل فتاة بالناحية ، تخفق لها قلوب الجنود جميعاً . وقد تنافس على حبها اثنان ، وأحبت أحدهما دون الآخر . وقد تضحك ساخراً إذا قلت لك إن الذى آثرته لوسامته هو هذا الرجل المشوه الجالس الآن أمامك !

« وبالرغم من أننى قد فزت بحبها ، فقد أصر أبوها على أن تتزوج باركلى . وكنت إذ ذاك شاباً طائشاً حين كان باركلى قد حاز قدراً من التعليم ورشح للترقية . ولكن الفتاة أخلصت لى الحب ، وبدا أنى سأنتصر على منافسى رغم كل شىء ، وإذا بالثورة تنشب فى الهند حتى أصبحت البلاد أشبه بالجحيم

« وحوصرنا فى بهورتى ، أعنى الفرقة كلها ، ونصف بطارية المدفعية ، وجماعة من الهنود من طائفة السيخ ، وعدد من الأهالى المدنيين والنساء . وكان نحو عشرة آلاف من الثوار يحاصروننا ، وكانوا يقظين متربصين ، كجماعة من كلاب الصيد حول مصيدة بها فأر . وفى الأسبوع الثانى من الحصار نفد ما لدينا من الماء ، فكان علينا أن نتصل بفرقة الجنرال نيل التى كانت تجوب البلاد ، وكانت هذه هى الفرصة الوحيدة أمامنا ، لأنه لم يكن فى مقدورنا أن نقتحم الحصار المضروب حولنا ، ومعنا ذلك العدد الكبير من النساء والأطفال. وعلى ذلك تطوعت أنا للخروج خفية ، واخطار الجنرال نيل بالحالة التى بتنا فيها . وقبل تطوعى ، وتحدثت بشأن هذه المهمة مع الجاويش باركلى الذى كان يعرف الجهة خيراً من أى شخص آخر ، ورسم لى الطريق التى أسلكها حتى يمكننى أن أخترق خطوط الأعداء . وفى الساعة العاشرة من تلك الليلة بدأت رحلتى الخطيرة ، وكانت هناك أرواح ألف من النـاس رهينة بنجاح المجازفة ، ولكنى كنت أفكر فى واحدة منهم فقط حين تسلقت السور تلك الليلة ، وكان علىّ أن أمر خلال مجرى مائى جاف ليحجبنى عن أعين الأعداء ، ولكنى بعد أن زحفت حول ركن منه ، وجدت نفسى فجأة بين ستة منهم كانوا متربصين لى فى الظلام . وتلقيت منهم ضربة قوية على رأسى ، وقيدت يداى

وقدماى بالأغلال . ولـكن الضربة أصابت قلبي أكثر مما أصابت رأسى ، لأنى حين أصغيت الى حديثهم ، أدركت ان الرجل الذى دلنى على الطريق ، قد وشى بى ، إذ بعث الى الأعداء خادماً له ينبئهم بخط سيرى

« ولا حاجة بى إلى الافاضة ، فأنت تعلم الآن أن جيمس باركلى كان أهلا لتلك النذالة . وقد فك الحصار عن بهورتى فى اليوم التالى ، ولـكن الثوار أخذونى معهم حين تقهقروا ، ومضت سنوات عديدة قبل أن أرى وجهاً أبيض

« وقد لقيت من التعذيب ألواناً ، وحاولت الفرار مراراً ، فكنت أقع فى الأسر من جديد ، وأعذب تعذيباً تتفتت له الأكباد . ويمكنك أن ترى بنفسك ما صرت اليه حين تركونى وشأنى . ذلك أن بعضهم هرب الى نيبول وأخذنى معه ، ثم مضوا بى فى طريقهم الى دار جيلنج . وثار أهالى التلال على الثوار الذين كنت معهم وقتلوهم ، فأصبحت أسير هؤلاء فترة من الزمن ، حتى وفقت الى الفرار أخيراً . ولـكن بدلا من أن أتجه نحو الجنوب اضطررت الى السفر شمالا ، حتى وجدت نفسى فى أيدى الأفغان ، ثم واصلت طوافى عدة أعوام حتى عدت أخيراً الى البنجاب ، وفيها عشت مع الأهالى زماناً طويلا ، وصرت أكسب رزقى بأعمال الحواة التى تعلمتها وحذقتها ، ولم أجد فائدة من العودة الى انجلترا ، وتذكير أصدقائى القدامى بنفسى وأنا المشوه الكسيح . إن رغبتى فى الانتقام على قوتها ، لم تكن كافية لاغرائى بذلك . بل آثرت أن أدع نانسى وأصدقائى القدماء يعتقدون انى مت مستقيم الظهر ، على أن يعلموا انى مازلت على قيد الحياة ، وأن يرونى أسير كالشمبانزى معتمداً على عصا . وهم لم يرتابوا قط فى موتى ، ولم أرغب قط أن أغير اعتقادهم هذا . وقد سمعت ان باركلى تزوج نانسى ، وانه نال ترقيات سريعة فى الفرقة ، ولـكن ذلك لم يحفزنى الى إظهار الحقيقة

« غير ان الانسان حين يتقـدم به العمر يتوق الى وطنه ، وقد مكثت سنوات وحقول انجلترا ومروجها الخضراء تتراءى لى فى منـامى ، وأخيراً عزمت أن أعود الى الوطن قبل أن توافينى منيتى . فادخرت مما أكسبه مبلغاً

من المال يكفي لسفرى من الهند الى انجلترا ، وجئت الى هنا ، وصرت أرتاد الأماكن التى يقصد اليها الجنود ، لأنى أعرف عاداتهم ، وأعرف كيف أسليهم ، وبذا أكسب معاشى »

ولما انتهى الرجل من سرد قصته قال له هولمز :

— إن كل ماقلته شائق للغاية ، وقد علمت بلقائك مسز باركلى ، وبأنك عرفتها وهى قد عرفتك . ثم فهمت انك تبعتها الى بيتها ورأيت من خلال النافذة كيف نشب شجار بينها وبين زوجها ، ولا شك انها جابهته بما كان من غدره وخيانته . ثم تغلبت عليك عواطفك ، فقفزت الى الحديقة واقتحمت عليهما الغرفة

— أجل يا سيدى ، هذا ما حدث . ولما أبصرنى تولاه رعب لم أر مثله قط . وسقط تواً على الأرض ، فارتطم رأسه بحاجز الوقدة . ولكن روحه كانت قد فاضت قبل أن يسقط على الأرض ، فقد تبينت دلائل الموت مرتسمة على ملامحه ، وكانت رؤيته إياى فجأة ، بمثابة رصاصة أصابت قلبه الأثيم

— وبعد ذلك ؟

— عندئذ أغمى على نانسى ، فأخذت مفتاح الباب من يدها لكى أفتح الباب وأطلب النجدة ، ولكن خطر لى بغتة أنه يحسن بى أن أترك المكان وأهرب ، فقد ينقلب الأمر ضدى . وخشيت أيضاً أن ينكشف سرى إذا قبض علىّ ، وفى أثناء خروجى مسرعاً وضعت المفتاح فى جيبى ، وفقدت عصاى وأنا أطارد « تيدى » ، وكان قد تسلق الستار ، ولما أعدته الى صندوقه الذى كان قد فر منه ، جريت هارباً بأسرع ما أستطيع

فسأله هولمز :

— ومن هو « تيدى » ؟

فمال الرجل الى الأمام ، وسحب واجهة صندوق فى ركن الغرفة يشبه بيت الأرانب ، وسرعان ما خرج منه حيوان جميل أسمر يميل الى الحمرة ، وكان رفيع الجسم ، سريع الحركة ، له أرجل النمس ، وأنف طويل نحيل ، وعينان حمراوان كأجمل ما رأيت من أعين الحيوانات

فصحت قائلا :

— انه نمس من فصيلة المنجوس !

— ان البعض يسمونه هكذا ، أما أنا فأدعوه بصائد الأفاعى ، وهو فى الحق بارع فى صيد ثعابين الكوبرا ، وعندى هنا ثعبان منها مخلوع الأنياب، وتيدى يصيده كل ليلة أمام الجمهور فى مشارب الجنود ، هل من سؤال آخر يا سيدى ؟

فقال له هولمز :

— قد نلجأ إليك مرة أخرى إذا تحرج موقف مسز باركلى

— فى هذه الحالة أتقدم بما عندى

— أما إذا لم يحدث ذلك ، فلا حاجة بنا الى نبش قبر رجل مات، واعلان فضيحته ... مهما كان مسلكه دالا على الجبن والنذالة ... ويكفى راحة لك ، أن تعلم أنه ظل ثلاثين سنة ، وضميره يؤنبه على ما بدر منه نحوك ... آه ، إنى أرى مستر مورفى يسير فى الجانب الآخر من الشارع ... وداعاً يا وود ، فانى أريد أن أعرف منه ما إذا كان قد حدثت تطورات منذ أمس

وأدركنا ماجور مورفى قبل أن يصل إلى ناصية الشارع، ولما رأى هولمز قال له :

— لعلك سمعت أن هذه الضجة قد انتهت الى لاشىء

— وكيف كان ذلك ؟

— لقد انتهى التحقيق ، ودل الفحص الطبي لجثة الكولونيل على أن الوفاة طبيعية ، وأنها نتيجة سكتة قلبية... وهأنت ترى أنها كانت مسألة بسيطة، رغم كل الظواهر

— أجل . مسألة سطحية للغاية ، هيا بنا يا واطسن ، ما أحسب أحداً يحتاج إلينا فى الدرشوت بعد الآن !

ولما سرت معه نحو المحطة قلت له :

— هناك نقطة أخرى تحتاج الى تفسير، إذا كان الكولونيل اسمه جيمس،



« وسحب الأحدب صندوقاً فى ركن الغرفة ، وسرعان ما خرج منه حيوان جيل.. »

والآخر اسمه هنرى ، فما معنى اشارة مسز باركلى الى « دافيد » أثناء شجارها مع زوجها ؟

— ان هذه الكلمة وحدها ، يا واطسن ، كانت جديرة بأن تدلنى على المسألة كلها ، لو أننى كنت المثل الأعلى فى قوة الاستنتاج كما يحلو لك أن تصفنى .. لقد كانت بلا ريب كلمة تأنيب وتقريع

— وكيف ذلك ؟

— أجل ، فأنت تعلم أن « دافيد » – كما جاء فى الانجيل – قد ضل قليلا هنا وهناك كما تعلم ، واتجه مرة مثل الاتجاه الذى اتجهه الجاويش جيمس باركلى ...



المترجم اليوناني

-٣-

خلال صداقتى الوثيقة الطويلة الذى لشرلوك هولمز ، لم أسمعه قط يذكر ذوى قرباه ، أو يشير إلى عهد طفولته وصباه . وزاد ذلك من الأثر الذى أحدثه فى نفسى ، حتى صرت أحسبه ظاهرة خارقة ، أو عقلا بلا قلب ، فان تجرده من العاطفة كان بقدر تفوقه فى الذكاء . وقد كان كرهه للنساء ، وفراره من اتخاذ أصدقاء ، من أقوى الدلائل على أن أخلاقه لا تخضع للعواطف ، ولكن كان تجاهله لأهله أقوى دلالة من كل ذلك . وقد انتهى بى الأمر إلى الاعتقاد بأنه نشأ يتيما وليس له أقارب أحياء ، ولكنه أدهشنى يوماً إذ بدأ يتحدث عن أخ له !

كان ذلك بعد أن تناولنا الشاى فى مساء أحد أيام الصيف ، وقد دار الحديث بيننا حول أندية الجولف ، ثم انتقل بنا إلى نظرية كسوف الشمس ، ثم وصل بنا أخيراً إلى نظريات الوراثة . وكان مدار الحديث حول تأثير الوراثة فى اكتساب الموهبة فى شخص ما

وقلت له :

— من الواضح فى حالتك أنت ، أن موهبة الملاحظة والاستنتاج عندك نتيجة تدريب منظم

فأجاب وهو يفكر :

— أجل إلى حد ما ... لقد كان أجدادى من أصحاب الأراضى ، فكانوا يعيشون عيشة طبقتهم ، ولكنى ورثت استعدادى هذا عن جدتى ، وكانت أخت « فرنيه » الفنان الفرنسى المعروف ، والفن إذا سرى فى الدم قد يتخذ أشكالا شتى

— ولكن كيف عرفت أن استعدادك هذا وراثى ؟

— لأن أخى ميكروفت له مثل هذا الاستعداد نفسه ، ولكن بشكل أقوى

وكان ذلك شيئاً جديداً علىّ . فانه إذا كان هناك شخص آخر له مثل هذه المواهب الفريدة ، فكيف لم يسمع به البوليس والجمهور . ولما أبديت له هذه الملاحظة ، وقلت له إن ما ذكره عن أخيه مبعثه التواضع ، ضحك ورد قائلا :

— ياعزيزى واطسن ، إنى لا أعد التواضع فضيلة ، إن الرجل المنطق يقدر الأشياء بقيمتها الحقيقية ، والذى يحط من قدر نفسه إنما يخالف الحقيقة ، كمن يغالى في تقدير نفسه سواء بسواء . فاذا قلت لك إن أخى ميكروفت أقدر منى على الملاحظة ، فثق أنى أقول الحق

— هل هو أصغر منك سناً ؟

— بل أكبر منى بسبع سنوات

— وكيف لم يشتهر ؟

— إنه معروف فى دائرته المحيطة به

— أين إذن ؟

— فى نادى ديوجنيز مثلا

ولم أكن قد سمعت بهذا النادى من قبل ، فأدرك هولمز ذلك وقال :

— إن نادى ديوجنيز هو أعجب ناد فى لندن ، وميكروفت من أعجب الناس . وتجده فى ذلك النادى دائماً من الساعة الخامسة إلا ربعاً إلى الثامنة إلا ثلثاً . والساعة السادسة الآن ، فاذا راقك أن تريض فى هذا المساء الجميل ، فانه يسرنى أن أعرفك بناد وبشخص غريبين . . .

وبعد خمس دقائق كنا نسير فى الشارع فى اتجاه ريجنت سيركوس . وقال لى صاحبي فى الطريق :

— لقد تعجب لماذا لم يستغل ميكروفت قواه فى أعمال البوليس ؟ ذلك لأنه غير أهل لذلك

— ولكنك قلت . . .

— لقد قلت إنه يفوقنى فى قوة الملاحظة والاستنتاج . وإذا كان فن البوليس السرى يبدأ وينتهى فى كرسى ذى ذراعين ، فان أخى كان أهلا

لأن يصبح أعظم رجال البوليس السرى فى العالم ، ولكنه لا طموح ولا نشاط له . بل انه لا يرضى أن يخرج عن طريقه المعتاد لكى يحقق ما يستنتجه ، بل يؤثر أن ينسب اليه الخطأ حتى لا يجهد نفسه فى إثبات الصواب . وكثيراً ما عرضت عليه مسائل وتلقيت منه إيضاحات صحيحة . ولكنه مع ذلك ليس كفؤاً لأن يتتبع النقط العملية اللازمة قبل أن تعرض قضية ما على قاض أو محلفين

— إذن ليست هذه مهنته ؟

— كلا . إن ما أجعله وسيلة لكسب رزقى هو عنده هواية وتسلية . . ولكن له دراية فائقة بالأرقام ويشتغل مراجع حسابات باحدى مصالح الحكومة . وهو يسكن فى جهة بولمول ويمشى صباح كل يوم الى هوايتهول ويعود مساء . وتمضى السنة دون أن يغير عادته هذه ، إلا أن يقصد الى نادى ديوجنيز فى الموعد المحدد الذى ذكرته لك ، ويقع هذا النادى أمام داره

— إنى لا أذكر هذا النادى !

— هذا معقول ، فان فى لندن أناساً كثيرين يحبون العزلة ، إما بدافع الخجل ، أو الفرار من صحبة الناس . وأمثال هؤلاء ينشدون مقاعد مريحة لقراءة آخر المجلات والصحف ، ولمثلهم أنشىء نادى ديوجنيز . فهو يشمل أبغض الناس فى الاجتماعات والأندية بلندن . . . ولا يسمح لأى عضو بأن يلتفت إلى أى عضو آخر ، كذلك يحرم الحديث إلا فى قاعة الغرباء . وإذا خالف العضو ذلك ثلاث مرات فانه يفصل من النادى . وأخى هو أحد الأعضاء المؤسسين ، وأنا نفسى كثيراً ما وجدت الجو هناك مهدئاً للأعصاب . . .

وكنا قد وصلنا الى بول مول ونحن نتحدث ، فوقف شرلوك هولمز عند باب على مقربة من كارلتون ، ودخل بى الى الردهة ، بعد أن حذرنى من الكلام . ورأيت فى المرآة الكبيرة صورة قاعة فسيحة فاخرة الأثاث ، وقد جلس فيها عدد من الرجال يقرأون الصحف ، كل منهم فى مقصورة خاصة .

ثم أدخلنى هولمز حجرة صغيرة تطل على بول مول وتركنى برهة ، وعاد مع شخص عرفت لأول وهلة أنه أخوه

وكان ميكروفت هولمز أكثر طولا وبدانة من شرلوك ، كان بدنه ممتلئاً ، غير أن وجهه رغم ضخامته كان حاد الملامح واضح التعبير مثل أخيه . وكان لعينيه تلك النظرة البعيدة التى لحظتها فى شرلوك هولمز كلما أجهد نفسه فى حل معضلة

ومد إلىّ يداً كبيرة مسطحة ، وقال :

— إنى مسرور للقائك يا سيدى ، فانى أسمع عن شرلوك فى كل مكان ، منذ أصبحت أنت مؤرخه . . . ولهذه المناسبة يا شرلوك : لقد كنت أنتظر مجيئك فى الأسبوع الماضى لتستشيرنى فى قضية دار العمدة ، لقد حسبت أنها أشكلت عليك

— كلا ، بل حللت عقدتها

— كان المجرم هو أدامز ، أليس كذلك ؟

— بلى ، انه آدمز

فقال ميكروفت :

— لقد كنت واثقاً من ذلك منذ البداية

وجلس الأخوان معاً أمام نافذة واطئة ، ثم قال ميكروفت :

— هذا مكان يصلح لدراسة الناس . انظر الى تلك النماذج الفاخرة : انظر مثلا الى هذين الرجلين القادمين نحونا . .

— أتقصد معلم البليارد والآخر ؟

— أجل ، ما رأيك فى الآخر ؟

ووقف الرجلان فى مكان مقابل للنافذة ، وكان على جيب سترة أحدهما علامات بالطباشير فلم أر غير ذلك دليلا على أنه معلم بليارد ، أما الرجل الآخر فكان صغير القد ، وقد دفع قبعته إلى الوراء فوق رأسه ، وتأبط عدة حزم تحت ذراعه

وقال شرلوك هولمز :

— إنه جندى قديم

وقال أخوه :

— وقد ترك خدمة الجيش منذ وقت وجيز

— وقد خدم فى الهند

— برتبة صف ضابط

فقال شرلوك :

— وأحسبه كان فى المدفعية

— وهو أرمل

— ولكن له طفلا

— بل عدة أطفال يا بنىّ

فضحكت من هذا الحوار وقلت لهما :

— حقاً انكما تبالغان !

فرد شرك هولمز قائلا :

— ليس من العسير أن نعرف أن رجلا له ذلك السمت ومظهر السلطة ولفحة الشمس ، هو جندى برتبة أكبر من رتبة نفر ، وأنه عاد من الهند منذ وقت ليس يبعيد

وقال ميكروفت :

— أما كونه لم يترك خدمة الجيش منذ مدة فباد من كونه يرتدى حذاء عسكرياً . . .وليست له خطوة الفرسان . . وكان يلبس قبعته مائلة الى جنب كما يدل عليه لون جلده فى ذلك الجانب من حاجبه . وهذا كله يدل على أنه فى المدفعية . . . ثم ان ملابس الحداد تنبىء بأنه مات له شخص عزيز عليه . وكونه يشترى لوازمه المنزلية بنفسه يدل على أن الذى مات هو زوجته . وأنت ترى أنه كان يشترى أشياء خاصة بالأطفال . ومن بينها خشخيشة تدل على أن أحدهم صغير ، وربما ماتت زوجته أثناء الوضع ، وكونه يحمل كتاب صور

تحت ذراعه يدل على أن هناك طفلا آخر يعنى به

ومن هذا الكلام أدركت صدق ما قاله شرلوك هولمز من أن أخاه يفوقه فى الملاحظة والاستنتاج . وقد نظر الىّ شرلوك وابتسم ، وأخرج ميكروفت نشوقاً من علبة صغيرة واستنشق قليلا منه ، وتناول من جيبه منديلا حريرياً كبيراً أحمر اللون . ثم قال :

ـــ على فكرة يا شرلوك ، عندى مشكلة من النوع الذى تحبه ، ولم أجد بنفسى النشاط اللازم لمتابعتها إلا فى نطاق محدود ، ولكنها أتاحت لى فرصة سارة للاستنتاج . . . وإذا أردت أن تقف على وقائعها . . .

فقال له شرلوك هولمز :

ـــ هذا يسرنى يا عزيزى ميكروفت

وكتب ميكروفت بضعة أسطر على ورقة انتزعها من مفكرته ، ودق الجرس ، وأعطاها للساقى ، وقال :

ـــ لقد طلبت الى مستر ميلاس أن يأتى الينا هنا ، إنه يسكن فى الطابق الذى يعلو مسكنى ، ولى به معرفة بسيطة ، أغرته بأن يقصدنى فى حيرته . إن مستر ميلاس رجل يونانى الأصل بارع فى اللغات ، ويكسب جانباً من دخله باشتغاله مترجماً بالمحاكم ، وجانباً آخر باشتغاله دليلا للسياح الشرقيين الذين يزورون لندن ، وسأدعه يقص عليك ما حدث له

وبعد بضع دقائق جاءنا رجل قصير القامة ، بادن الجسم ، يدل اسمرار وجهه وسواد شعره ، على أنه من جنوب أوروبا ، ولكن لغته الانجليزية لا تشوبها شائبة . وقد صافح شرلوك هولمز بحرارة ، وبان عليه السرور حين علم أنه يريد سماع قصته ، وقال :

ـــ أحسب أن رجال البوليس لايصدقوننى ، لا لشىء إلا لأنهم لم يسمعوا بمثل هذا الحادث من قبل ، فهم لذلك يظنونه محالا ، ولكنى لا يهدأ لى بال حتى أعرف مصير ذلك الرجل المسكين الذى على وجهه لزقة

فقال له شرلوك هولمز :

— إنى مصغ اليك

واستطرد اليونانى يقول : « نحن الآن فى مساء الأربعاء ، وقد حدث الحادث يوم الاثنين ليلا ، أى منذ يومين اثنين ، وأنا مترجم كما ربما علمت من جارى ، وأنا أترجم الى جميع اللغات تقريباً ، ولكنى أشتغل بالترجمة من اليونانية واليها على الخصوص لأنى يونانى الأصل ، وقد انقضت سنوات وأنا المترجم اليونانى الأول فى لندن ، واسمى معروف فى جميع الفنادق

« وقد يحدث أحياناً أن يستدعينى الأجانب فى ساعات عجيبة من الليل حين يقعون فى مشاكل ، أو يطلبنى السياح حين يصلون فى ساعة متأخرة من الليل ، ولذا لم أدهش ليلة الاثنين الماضى حين جاء المستر لاتيمر – وهو شاب أنيق – وطلب الىّ أن أذهب معه فى عربة تنتظر أمام الباب ، وقال لى إن صديقاً يونانياً جاء لزيارته ، لبعض شؤون التجارة ، ولما كان لا يعرف غير لغته اليونانية ، فقد تطلب الأمر الاستعانة بى للترجمة بينهما . وقد ذكر لى ان بيته بعيد ، فى كنسنجتون ، وكان فى عجلة ظاهرة ، حتى انه دفعنى الى العربة ، حين نزلنا الى الشارع

« وكانت عربة كبيرة أفسح من عربات الركوب المعتادة فى لندن ، وجلس فيها المستر لاتيمر أمامى ، وسارت بنا الى تشيرنج كروس ، ثم الى شافتسبورى أفنيو ، ولما وصلت بنا الى شارع اكسفورد ، قلت له ان هذه طريق دائرة ، وليست أقرب طريق الى كنسنجتون ، فكان رده على هذه الملاحظة أن أخرج من جيبه هراوة غليظة بأحد طرفيها رصاص ، وأخذ يهزها أمامى مراراً كأنه يفحص وزنها وقوتها ، ثم وضعها على المقعد بجانبه دون أن ينطق بكلمة ، وبعدئذ أغلق نافذتى العربة ، وكانتا مغطاتين بورق بحيث لا أرى شيئاً من خلالها . وقال لى : « آسف لأن أحول دون رؤيتك شيئاً ، فانه لا ينبغى أن تعرف المكان الذى نحن ذاهبان اليه ، فقد يضرك أن تعرف الطريق اليه مرة أخرى

« وقد دهشت من مسلكه هذا ، وكان شاباً عريض الكتفين قوى البدن ،

جديراً بأن أخشاه حتى ولو لم تكن بيده تلك الهراوة ، ولكنى قلت له متلعثما : « إن مسلكك هذا عجيب يامستر لاتيمر . ولعلك تعلم ان ماتفعله معى مخالف للقانون » . فأجاب قائلا : «أجل ، ولكنا سنعوضك تعويضاً سخياً ... بيد انى أحذرك يامستر ميلاس ، إذا حاولت فى أية لحظة من هذه الليلة أن تصرخ ، أو تقدم على عمل مناف لصالحى ، فقد ينالك شر مستطير . وتذكر انه لايعرف أحد مكانك ، وسواء كنت فى هذه العربة أو فى بيتي فانك فى قبضة يدى »

« وكان يتحدث فى هدوء ولكن بشكل ينذر بالشر ، فقبعت فى مكانى ساكناً وأنا أسائل نفسى عن الداعى الى اختطافى بهذا الشكل العجيب . وأياً كان الأمر فقد كان من العبث أن أقاوم ، فما علىّ إلا أن أنتظر تطور الحوادث

« ومضت بنا العربة نحو ساعتين دون أن أدرى أين تسير بنا ، فأحيانا كانت تسير فى طريق مرصوف بالحجر ، وأحيانا على أرض رخوة ، وأخرى على الأسفلت . وكان الورق الذى على نافذتى العربة لاينفذ منه الضوء ، وقد أسدل ستار أزرق على الزجاج الذى فى مقدمة العربة . وقد غادرنا بول مول الساعة السابعة والربع ، ولما وقفت بنا العربة أخيراً نظرت فى ساعتى فرأيت أن الوقت هو التاسعة إلا عشر دقائق . وفتح رفيقى نافذة بالعربة فرأيت أمامى بابا عليه قبو ومصباح يضىء فوقه . ولما غادرت العربة ، فتح الباب ، ووجدت نفسى داخل بيت على جانبيه حديقة وأشجار . وكان بالبيت مصباح ملون يضىء ، ولكن ضوءه خافت لا يرى منه سوى ردهة كبيرة علقت صور على جدرانها . ورأيت فى الضوء الخافت ان الذى فتح لنا الباب رجل صغير القد ، متوسط العمر ، ذو كتفين مستديرتين . ولما التفت نحونا أدركت انه يلبس منظاراً على عينيه . وقال لرفيقى :

— هل هذا مستر ميلاس ياهارولد ؟

— أجل

— أحسنت اداء المهمة ! اننا لا نريد بك سوءاً يامستر ميلاس ، ولكنا نستطع الاستغناء عنك ، وإذا خدمتنا باخلاص فانك لن تندم ، ولكن إذا

حاولت أن تخدعنا ، فان العاقبة تكون وخيمة عليك

« وكان يتكلم بلهجة عصبية ، ويتخلل الضحك كلماته ، ولأمر ما خشيته أكثر مما خشيت صاحبه ، فقلت له : « ماذا تريدون منى ؟ »

— لا شيء سوى ان توجه بعض الأسئلة الى سيد يونانى فى ضيافتنا ، وأن تترجم لنا أجوبته عنها ، ولكن لا تقل أكثر مما نأمرك بقوله ، وإلا ندمت أشد الندم

« وإذ قال ذلك ، فتح بابا ، وقادنى الى غرفة يبدو انها فاخرة الأثاث ، ولكن الضوء فيها كان ضعيفا للغاية ، وكانت بلا ريب غرفة فسيحة ، وكانت قدماى تغوصان فى سجادها النفيس . ولمحت بها مقاعد من المخمل الأخضر ، وكان رف الموقدة بها من الرخام الأبيض . وكان هناك كرسى تحت المصباح فأشار الى الرجل المتقدم فى السن كى أجلس . وكان الشاب قد تركنا ولكنه عاد فجأة من باب آخر وكان يقود رجلا مرتديا ثيابا منزلية ، ولما تبينت وجهه فى الضوء روعنى منظره ، فقد كان وجهه شاحبا كوجوه الموتى ، وزاد من رعبى انه كان يتخلله « لزقة » على شكل خطوط عجيبة ، وكان جزء منها قد لصق على فمه كيلا يتكلم !

« وجلس هذا الرجل على كرسى ، وكأنه سقط فيه ، فقال الشيخ للشاب : « هل معك الاردواز يا هارولد ؟ هل فككت وثاق يديه ؟ والآن أعطه قلم رصاص . وعليك أنت يامستر ميلاس أن توجه اليه الأسئلة ، وهو يكتب الأجوبة ... سله أولا هل هو مستعد لأن يوقع الأوراق !

« فلمعت عينا الرجل ببريق كالشرر ، وكتب على الاردواز باللغة اليونانية : « لن أوقعها أبداً »

« فسألته كما أمرنى الشيخ الطاغية : « مهما تكن الظروف ؟ »

فقال : إذا زوّجها فى حضورى قسيس يونانى أعرفه

فضحك الشيخ بصوت كصوت القردة وقال : « إنك تعرف ماذا ينتظرك ؟ »

فقال الرجل :

— لا أبالى ما يصيبنى

وهذه نماذج من الأسئلة والأجوبة التى ترجمتها ، وكنت بين لحظة وأخرى أكلف أن أعاود سؤاله عما إن كان مستعداً لتوقيع الوثيقة ، وكان فى كل مرة يرد بالنفى

« ثم خطرت لى خاطرة صالحة : فصرت أضيف الى كل سؤال أو امر بتوجيهه اليه باللغة اليونانية جملة من عندى ، وكانت فى البداية عبارات بريئة أردت بها أن أستوثق من جهل الشيخ والشاب بما أقوله ، وبعدئذ تجرأت وجرى الحديث بينى وبين ذلك الأسير اليونانى على الوجه الآتى :

— لن يفيدك هذا العناد ... من أنت ؟

— لست أبالى ... أنا غريب فى لندن

— إن العاقبة وخيمة عليك ... منذ متى وأنت فى لندن ؟

— فليكن ... ثلاثة أسابيع

— إن الأملاك لن تكون لك ... ماذا يؤلمك ؟

— إنى لن أستسلم للأشرار ... إنهم يميتوننى جوعا

— إنك سيطلق سراحك إذا وقعت .. فى أى دار نحن ؟

— لن أوقع بأى حال ... لا أدرى

— إن عنادك هذا ليس فى صالحها ... ما اسمك ؟

— دعنى أسمع منها ذلك ... كراتيدس

— ستراها إذا وقعت ، من أى بلد ؟

— إذن لن أراها أبداً ... أثينا

ولو انقضت خمس دقائق أخرى على هذه الحال لعرفت سر المسألة تحت سمع الاثنين وبصرهما ولعل سؤالى التالى كان يوضح كل شىء . ولكن فى تلك اللحظة فتح الباب ودخلت امرأة لم أرها بوضوح ، ولكنى رأيت منها ما دلنى على انها طويلة القامة حسناء ذات شعر أسود ، وكانت مرتدية جلباباً فضفاضاً أبيض اللون ، وقالت بلغة انجليزية تشوبها لكنة أجنبية :

— يا هارولد : إنى لم أقدر أن أمكث هناك أكثر مما مكثت . . . فانى شعرت بالوحدة ... آه ... رباه ... هذا بول !

« وقالت هذه الكلمات الأخيرة باللغة اليونانية . وفى الوقت نفسه أزال الرجل بغتة تلك اللصقة التي على وجهه وشفتيه وصاح قائلا : «صوفيا ، صوفيا!» واندفع بين ذراعيها ، ولكن عناقهما لم يدم إلا لحظة ، لأن ذلك الشاب أمسك بالمرأة ودفعها خارج الغرفة ، فى حين تغلب الشيخ على الأسير اليونانى وسحبه وخرج به من الباب الآخر . ومكثت برهة وحدى بالغرفة فوقفت لعلى أجد أى دليل يوضح ما يحيط بى من غموض ، ولحسن الحظ لم أخط أية خطوة ، لأنى نظرت أمامى ، فوجدت الشيخ واقفاً بالباب يحدق فى ، ثم قال لى : «هذا يكفى يامستر ميلاس ، ولقد رأيت أننا وثقنا بك فى مسألة خصوصية لا تعنى أحداً سوانا ، وما كنا لنلجأ اليك ، لولا أن صديقنا الذى يعرف اللغة اليونانية ، والذى بدأ هذه المباحثات قد أرغم على العودة الى الشرق ، فكان لزاماً علينا أن نجد أحداً يحل محله ، ولحسن حظنا سمعنا عنك »

«فانحنيت شاكراً ، ثم تقدم نحوى وقال : «هاك خمسة جنيهات ، ولعلها أجر كاف لك ، ولكن تذكر انك إذا قلت كلمة لأى مخلوق عما رأيت هنا ، كنت من الهالكين »

«ولا يمكننى أن أصف لكم مبلغ البغض والرعب اللذين شعرت بهما نحو هذا الرجل الحقير المظهر ، والآن وقد انعكس عليه الضوء أمكننى أن أراه جيداً ، وكان وجهه شاحباً وملامحه تدل على الخبث ، وله لحية صغيرة مدببة لم تشذب . وكان إذا تكلم مال برأسه الى الأمام واهتزت شفتاه وأهداب عينيه بشكل عصبى ظاهر . وكان يضحك ضحكة قصيرة حادة ، تدل على سوء حالته العصبية . على ان عينيه هما اللتان تبعثان الرعب قبل غيرهما ، فقد كانتا عينين جامدتين ، غائرتين فى وجهه ، تدلان على قسوة بالغة . ثم قال لى : « إذا تحدثت بما رأيت هنا ، فلن يخفى ذلك علينا لأن لدينا وسائلنا . والآن ستجد العربة التي جاءت بك واقفة بالباب ، وسيصحبك صديقى فى الطريق »

« وأسرعت نحو العربة كما أمرت ولمحت الحديقة والأشجار فى طريقى ، ومضى مستر لاتيمر فى أثرى ، وجلس فى العربة أمامى دون أن ينطق بكلمة. وسارت بنا العربة مسافة طويلة ، ونحن صامتان ، والنافذتان مغلقتان ، وبعد منتصف الليل بقليل وقفت العربة ، فقال رفيقى : « اهبط أنت هنا يامستر ميلاس ، وأنا آسف لأن أتركك هنا بعيداً عن بيتك ، ولكن ما باليد حيلة، وثق انك إذا حاولت أن تتبع العربة فستجلب على نفسك شراً مستطيراً »

« وإذ قال ذلك ، فتح باب العربة ، ولم أكد أضع قدمى على الأرض ، حتى هوى الحوذى بالسوط على ظهر الجواد ، فجرى بالعربة مسرعاً ، ونظرت حولى مندهشاً ، فوجدت نفسى فى مرج أخضر تتخلله بقع سوداء هى شجيرات متشابكة ، ورأيت على بعد من هناك صفاً من المنازل ينبعث الضوء من بعض نوافذها ، وعلى الجانب الآخر مصابيح حمراء للسكة الحديدية

« واختفت العربة عن بصرى ، فوقفت فى مكانى أسائل نفسى أين أكون، وإذا بشخص تقدم نحوى ، فلما اقترب منى ، عرفت من ملابسه انه حمال من حمالى القطرات ، فسألته :

ـــ أيمكنك أن تخبرنى باسم هذه الجهة ؟

ـــ واندزورث كومن

ـــ أيمكننى أن أركب قطاراً يوصلنى الى المدينة ؟

ـــ أجل ، إذا مشيت مسافة ميل تقريباً ، حتى تصل الى محطة كلافام ، وإذا اسرعت الآن ، أمكنك أن تدرك آخر قطار مسافر الى محطة فكتوريا

« وهذه نهاية ذلك الحادث العجيب يامستر هولمز . وأنا لا أدرى أين كنت ولا مع من تكلمت ، ولا أدرى أى شىء سوى ما قلته لك ، ولكنى موقن أن الأمر ينطوى على سوء ، وأريد انقاذ ذلك الرجل البائس ، وقد أخبرت المستر ميكروفت هولمز بالحادث غداة وقوعه ، ثم أبلغت البوليس بعد ذلك »

وبعد أن استمعنا الى هذه القصة العجيبة ، مكثنا برهة صامتين ، ثم سأل شرلوك أخام :

— هل اتخذت تدابير ؟

فأمسك ميكروفت بجريدة ديلى نيوز ، وكانت على المنضدة ، وقرأ فيها الاعلان الآتى : « جائزة كبيرة لمن يدلى بمعلومات عن شخص يونانى يدعى بول كراتيدس من مدينة أثينا ولايعرف اللغة الانجليزية ، وتدفع جائزة أخرى مماثلة لمن يدلى بمعلومات عن سيدة يونانية اسمها الأول صوفيا . اكتب الى رقم ٢٤٧٣ » ، ولكن لم يرد أحد على هذا الاعلان

— وهل اتصلت بالمفوضية اليونانية ؟

— لقد استعلمت منها ولكنها لا تعلم شيئاً

— إذن نرسل برقية الى بوليس أثينا

فالتفت ميكروفت الىّ وقال : إن شرلوك قد استأثر بنشاط أسرتنا ، وعلى أى حال تول أنت هذه المسألة ، ثم أخبرنى إذا نجحت

فقام شرلوك من مقعده وقال :

— بالتأكيد سأخبرك ، كما سيخبرك مستر ميلاس أيضاً ، والآن يا مستر ميلاس ، لو كنت فى مكانك لأخذت حذرى ، فانهم سوف يدركون من الاعلان انك أفشيت سرهم

وفى أثناء عودتنا الى المنزل ، قصد هولمز الى مكتب تلغرافات ، وأرسل عدة برقيات ، ثم قال لى :

— هأنتذا ترى ياواطسن اننا لم نضيع وقتنا هباء ، إن بعض قضاياى الهامة قد جاءتنى هكذا عن طريق ميكروفت ، والمشكلة التى وقفنا عليها الآن ليس لها سوى إيضاح واحد ، ولكنها مع ذلك تحوى ظواهر شائقة

— هل تأمل أن تحلها ؟

— ما دمنا قد عرفنا الكثير عنها ، فانه يكون عجيباً حقاً إذا فشلنا فى معرفة الباقى ، وأنت نفسك لا بد أنك قد كونت رأياً فيما سمعناه

— أجل ولكن بشكل مبهم

— ما رأيك إذن !

ــ يبدو لى ان الشاب الانجليزى المدعو هارولد لاتيمر قد اختطف الفتاة اليونانية المسماة صوفيا

ــ ومن أين اختطفها ؟

ــ ربما من أثينا

فهز شرلوك هولمز رأسه وقال :

ــ إن هذا الشاب لا يعرف كلمة يونانية ، والفتاة تتقن اللغة الانجليزية ، وهذا دليل على أنها قد مكثت فى انجلترا مدة ، أما هو فلم يزر اليونان

ــ إذن نفترض انها جاءت الى انجلترا فى زيارة وان هارولد قد أغراها بالفرار معه

ــ أرجح هذا

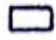
ــ ثم جاء هذا الرجل اليونانى ــ وأحسبه أخاها ــ من اليونان الى لندن ليأخذ أخته ، ولكنه وقع فى قبضة هذا الشاب وشريكه الشيخ ، وهما يتخذان معه وسائل عنيفة لاكراهه على توقيع بعض وثائق ، يتنازل بمقتضاها اليهما عن ثروة الفتاة ، التى هو وصى عليها ، وهو يرفض ذلك . ولكى يتفاهما معه لجآ الى ذلك المترجم المدعو ميلاس بعد أن استخدما أحداً غيره . وكانت الفتاة لا تعلم بمجىء أخيها الى لندن ، وقد عرفت ذلك مصادفة

ــ هذا بديع ياواطسن ، أعتقد انك لست بعيداً عن الحقيقة ، وهأنتذا ترى أننا نمسك بكل خيوط المشكلة ، ولسنا نخشى إلا أن يأتى الاثنان فجأة عملا من أعمال العنف ، ولكن إذا تركا لنا فسحة من الوقت فسنضع أيدينا عليهما

ــ ولكن كيف تعرف موقع البيت ؟

ــ إذا كان فرضنا صحيحاً ، واسم الفتاة صوفيا كراتيدس ، فانه لن يصعب علينا اقتفاء أثرها . وهذا معقد الأمل ، لأن أخاها شخص غريب لا يعرفه أحد فى لندن . ومن الواضح انه انقضى زمن ــ ولو بضعة أسابيع على الأقل ــ على علاقة الشاب بالفتاة ، بدليل ان أخاها قد سمع بتلك العلاقة وهو فى اليونان ، فجاء الى لندن . فاذا كان الاثنان قد مكثا فى مكان واحد خلال ذلك الوقت ،

فانه من المحتمل أن نتلقى رداً على الاعلان الذى نشره ميكروفت



وفى أثناء حديثنا هـذا وصلنا الى مسكننا فى شارع بيكر . وصعد هولمز الدرج قبلى ، ولما فتح باب الشقة ، صاح فى دهشة ، ولما نظرت من فوق كتفه، دهشت مثله ، فقد رأيت أخاه ميكروفت جالساً فى المقعد الكبير وهو يدخن . وابتسم حين رآنا وقال لأخيه :

— تعال ياشرلوك ... لا شك انك لم تكن تنتظر مثل هذا النشاط منى . غير ان هذه المشكلة قد أثارت إهتمامى

— وكيف جئت الى هنا قبلنا ؟

— جئت راكباً عربة

— هل من جديد ؟

— لقد تلقيت رداً على الاعلان بعد دقائق معدودة من ذهابكما

— وماذا يقول الرد ؟

فأخرج ميكروفت من جيبه رقعة من الورق وقال :

— هاك الرد وهو بخط رجل ضعيف البنية ، فى أوسط العمر

وجاء فى ذلك الخطاب ما يلى : « سيدى : رداً على اعلانك المنشور اليوم أخبرك انى أعرف تلك السيدة الشابة معرفة جيدة ، وإذا زرتنى فانى أطلعك على معلومات تفصيلية عن مأساتهـا ، وهى تعيش الآن عند « ذى ميرتلز » بجهة بكنهام ... المخلص ج . دافنبورت »

ثم قال ميكروفت هولمز :

— لقد أرسل هذا الخطاب من لور بريكستون . ألا ترى أن نذهب اليه الآن فى عربة لنقف على المعلومات التى عنده !

— يا عزيزى ميكروفت : إن حياة ذلك الرجل اليونانى أهم عندى من معرفة قصـة أخته ، وأرى أن نذهب الآن الى اسكتلانديارد ، ونخبر المفتش جريجسون بالأمر ، وبعد ذلك نقصد الى بكنهام مباشرة ، اننا نعرف ان هناك

رجلا فى خطر الموت ، فكل ساعة لها قيمتها

فقال له :

ــ يحسن بنا أن نمر فى طريقنا على مستر ميلاس لنأخذه معنا ، فقد نحتاج الى مترجم

ــ هذا رأى صواب ، ابعث الغلام فى طلب عربة لنذهب تواً

وفتح درجاً ، ولحظت أنه أخذ منه مسدساً ووضعه فى جيبه ، وقال لى :

« يبدو لنا مما سمعناه أننا حيال عصابة خطيرة »

وكان الليل قد حل حين وصلنا إلى بول مول ، وسألنا عن مستر ميلاس فى مسكنه فقيل لنا إن رجلا زاره وذهب معه ، فسأل ميكروفت المرأة التي فتحت الباب :

ــ ألا يمكنك أن تخبرينى أين ذهب ؟

ــ لا أدرى يا سيدى وكل ما أعرفه أنه أخذه معه فى عربة

ــ هل ذكر الزائر اسمه ؟

ــ كلا يا سيدى

ــ هل كان شاباً وسيما طويل القامة ؟

ــ كلا يا سيدى ، بل كان رجلا صغير القد نحيل الوجه يلبس منظاراً ، وكان لطيفاً يضحك وهو يتكلم

فصاح بنا شرلك هولمز :

ــ هيا بنا ! إن الأمر قد زاد خطراً

ثم قال لنا ونحن فى طريقنا الى اسكتلانديارد :

ــ لقد وضعوا أيديهم على ميلاس من جديد . وهو رجل عاطل من القوة والشجاعة كما عهدوه فى المرة الماضية ، وقد كان يسيراً على ذلك الوغد أن يملأ نفسه رعباً منذ أركبه العربة فى تلك الليلة ، ولاريب أنهم قد احتاجوا اليه للترجمة مرة أخرى ، ولكنهم سيعاقبونه على إفشاء سرهم

وكنا نأمل أن نصل قبل العربة الى بكنهام اذا ركبنا القطار ، ولكنا لما

وصلنا الى اسكتلانديارد ، انتظرنا ساعة حتى جاء المفتش جريجسون ، وتمت المراسم القانونية التي تبيح لنا اقتحام المنزل . وكانت الساعة قد بلغت العاشرة إلا ربعاً حين وصلنا الى كوبرى لندن ، ثم العاشرة والنصف حين نزلنا من القطار فى محطة بكنهام . فركبنا عربة سارت بنا مسافة نصف ميل حتى وصلنا إلى « ذى ميرتلز » وهو بيت معتم اللون متخلف عن الطريق وله حديقة واسعة ، فغادرنا العربة ، ومشينا على أقدامنا . وقال مفتش البوليس :

— إن نوافذ الدار كلها مظلمة . ويبدو أن الدار مهجورة

فقال هولمز :

— ربما فر الطير وصار العش خاوياً

— وما الذى يدعوك الى هذا الاعتقاد ؟

— لأن عربة ثقيلة محملة بالمتاع قد مرت ذاهبة من هنا فى الساعة الأخيرة

فضحك مفتش البوليس وقال :

— لقد رأيت آثار عجلات العربة فى ضوء مصباح المدخل ، ولكن كيف استنتجت أنها كانت تحمل متاعاً ؟

— لأن آثار العجلات الخارجية كانت أعمق من الأخرى ، وهذا دليل على أن العربة كانت تحمل شيئاً ثقيلا

فهز مفتش البوليس كتفيه ثم قال :

— لن يسهل علينا فتح الباب عنوة ، ولكننا سنحاول أولا أن نقرعه لعل أحداً يسمعنا

وأخذ يقرع الباب ويدق الجرس ولكن دون جدوى ، وكان هولمز قد تركنا لحظة ثم عاد وقال :

— لقد فتحت نافذة

فقال مفتش البوليس حين رأى البراعة التي فتح بها النافذة من الخارج :

— من حسن الحظ أنك فى صف القانون ولست ضده يامستر هولمز … والآن أرى أن ندخل دون انتظار دعوة من أحد



« وفتح هولمز الباب ودخل ، ولكن سرعان ما خرج ويده على عنقه وهو يكاد يختنق »

ودخلنا ، أحدنا فى أثر الآخر ، من خلال النافذة ، فوجدنا أنفسنا فى غرفة فسيحة ، كانت هى بلا ريب نفس الغرفة التي كان بها المستر ميلاس من قبل ، وكان مفتش البوليس قد أضاء مصباحه ، فوجدنا أن الوصف الذى سمعناه ينطبق على الغرفة تماماً ، وكان على المائدة زجاجة خمر فارغة وبقايا طعام

وفجأة قال هولمز :

— ما هذا ؟

فوقفنا جميعاً نستمع ، وقد طرق آذاننا صوت أنين خافت ، آتياً من مكان ما فوق رؤوسنا ، فاندفع هولمز نحو الباب ومنه إلى الردهة ، وكان الصوت آتياً من الطابق الأعلى ، فهرع نحوه ، ومضيت أنا ومفتش البوليس وراءه ، فى حين تبعنا أخوه ميكروفت بقدر ما يسمح له جسمه الضخم من السرعة

وواجهتنا فى الطابق الثانى أبواب ثلاثة ، وكان صوت الأنين صادراً عن الباب الأوسط منها . وكان يضعف أحياناً حتى لا يكاد يسمع ، ويعلو أحياناً حتى ينقلب عويلا . وكان ذلك الباب موصداً ، ولكن المفتاح كان بالقفل من الخارج ، ففتح هولمز الباب ودخل ، ولكن سرعان ما خرج ويده على عنقه وهو يكاد يختنق ، وصاح قائلا :

— دخان فحم . . . دعوا الدخان يخرج !

ورأينا من الخارج ضوءا أزرق ينبعث من موقد فى وسط الغرفة ، ولاح لنا شبح شخصين جثما إلى جوار الحائط ، ونفذت من الباب رائحة فحم قوية جعلتنا نسعل بشدة . ثم صعد هولمز إلى أعلى السلم ليفتح منفذاً للدخان ، وبعدئذ دخل الغرفة مسرعاً ، ورمى ذلك الموقد الى الحديقة ، ثم خرج وقال لنا :

— بعد قليل يمكننا أن ندخل . ألا توجد معكم شمعة ؟ ولكنى أخشى أن نوقد عود ثقاب فى هذا الجو ، أمسك المصباح عند الباب يا ميكروفت ، وسنخرج هذين الرجلين من الغرفة

ثم دخل إلى حيث كان الرجلان المختنقان من رائحة الفحم ، وسحبهما إلى خارج الغرفة . وكانا غائبين عن وعيهما ، وقد ازرقت شفاههما وورم وجهاهما وبرزت أعينهما بشكل مخيف . وانقلبت سحنتهما لدرجة يصعب معها أن نعرف المترجم اليونانى ميلاس لولا لحيتـه السوداء ، وكان مقيد اليدين والقدمين وفوق عينه أثر ضربة عنيفة . أما الآخر فكان مقيداً مثله وكان نحيلا حتى لم يبق منه إلا جلد على عظم ، وعلى وجهه عدة شرائط من « لزقة » موضوعة بشكل مضحك ، وكان قد كف عن الأنين حين وضعناه على الأرض ، وعرفت من أول نظرة أننا وصلنا اليه بعد فوات الوقت . أما مستر ميلاس فكان لا يزال حياً . وبعد أن عالجته ساعة بالنشادر والبراندى ، سرنى أن رأيته يفتح عينيه ويعود الى وعيه

وكانت القصة التى قصها علينا بسيطة ، وقد دلتنا على صواب ما استنتجناه من قبل . وقال إن زائره أبرز له من كمه هراوة غليظة أرعبه بها ، فذهب معه تواً . والواقع أن ذلك الوغد قد أثر فيه لدرجة أنه صار يرتعد كلما ذكره . ثم استقل معه العربة الى بكنهام ، وأمر بأن يترجم كما طلب اليه من قبل ، وكان الانجليزيان أشد عنفاً مع أسيرهما اليونانى من المرة الماضية ، وقد هدداه بالقتل تواً إذا لم يذعن لطلبهما . ولما وجداه ثابتاً لا يلين أعاداه الى سجنه . ثم أخذا يلومان ميلاس على خيانته لهما كما دل عليها الاعلان الذى نشر بالجريدة ، وبعدئذ ضرباه بعصا ولا يذكر بعدئذ شيئاً حتى رآنا منحنين فوقه

وهكذا كانت قضية المترجم اليونانى الفريدة ، ولا يزال الغموض يحيط بها . وقد اتصلنا بالرجل الذى رد على الاعلان ، فعلمنا منه أن تلك الشابة البائسة هى من أسرة يونانية غنية ، وأنها جاءت من انجلترا لزيارة بعض أصدقائها . وهناك تعرفت بشاب انجليزى يدعى هارى لاتيمر ، وسرعان ما سيطر على إرادتها وأغراها بأن تهرب معه . وقد راع أصدقاءها ذلك ، ولكنهم اكتفوا بأن كتبوا الى أخيها فى أثينا ثم نفضوا أيديهم من المسألة ، ولما وصل أخوها الى لندن وقع لقلة حيطته فى قبضة لاتيمر وشريكه المسمى

ويلسن كمب ، وهو رجل شرير ذوسوابق . وكان ذلك الرجل اليونانى قليل الحول فى أيديهما لجهله باللغة الانجليزية ، وقد حاولا أن يرغماه بالعنف والجوع على توقيع وثيقة يتنازل بمقتضاها عن ثروته وثروة أخته لهما . وكانا قد سجناه فى ذلك المنزل دون علم أخته ، ووضعا شرائط اللصقة على وجهه كيلا تعرفه إذا تصادف أن لمحته ، غير أنها سرعان ما عرفته حين رأته خلال الزيارة الأولى للمترجم ، برغم اللصقة التي شوهت شكل وجهه ، غير أن الفتاة المسكينة كانت هى أيضاً سجينة ذلك البيت ، لأنه لم يكن معها فيه سوى الشخص الذى قام بمهمة الحوذى وزوجته ، وكلاهما فى خدمة المتآمرين . ولما وجد الشقيان أن سرهما قد ذاع ، وأن أسيرهما لا يريد أن يذعن ، هربا من الدار التي استأجراها مفروشة ، وأخذا معهما الفتاة بعد أن انتقما من أخيها الذى رفض الاذعان لهما ، ومن المترجم الذى أفشى سرهما



بعد عدة أشهر وصلت الينا أقصوصة من جريدة تصدر فى بودابست ، وقد حوت نبأ عن رجلين انجليزيين لقيا حتفهما ، وكانت معهما فتاة يونانية تدعى صوفيا ، واتضح أنهما ماتا طعناً بالخناجر ، ومن رأى البوليس المجرى أنهما تشاجرا فطعن كل منهما الآخر . وقرأ هولمز هذا النبأ فكان له رأى آخر ، وهو أنه لو أمكن العثور على تلك الفتاة لاتضح أنها قد أخذت بثأر أخيها وانتقمت لنفسها من ذينك المجرمين



الوظيفة الجديدة

-٤٠-

بعد زواجي بقليل اشتريت عيادة في حي بادنجتون ، وكانت في وقت ما رائجة ، ولكن طبيبها الدكتور فاركوهار تقدم به العمر وانتابته الأمراض . ولما كان الجمهور يعتقد أن الطبيب الذي يعالجه يجب أن يكون هو نفسه سليما معافى ، فقد قل الاقبال على تلك العيادة ، فهبط إيرادها من ألف ومائة جنيه إلى ثلاثمائة جنيه في السنة . وكنت في شبابي وافر الأمل جم النشاط ، ولذا توقعت أن لا تمضي بضع سنوات حتى تعود تلك العيادة بعد أن اشتريتها الى رواجها السابق

ومكثت ثلاثة أشهر وأنا منهمك في العمل ، فلم أر صديقي شرلوك هولمز إلا قليلا ، ولم يكن لدىّ متسع من الوقت لأزوره في شارع بيكر ، وهو من جهته قل أن يذهب إلا حيث تتطلب أعماله الذهاب . ولذا دهشت إذ كنت جالساً صباح يوم من أيام يونيه أقرأ في الجريدة الطبية البريطانية ، وإذا بجرس الباب يدق ، ويتبعه صوت صديقي القديم

وقال لي وهو يدلف الى الغرفة :

ـــ آه يا عزيزي واطسن ، إني سعيد برؤيتك ، ولعل مسز واطسن قد ولى عنها أثر المفاجأة في مغامرتنا المتعلقة « بعلامة الأربعة » ؟

فصافحته بحرارة ، وقلت له :

ـــ شكراً لك ، إننا في خير حال

ثم استطرد بعد إذ جلس على الكرسي الهزاز :

ـــ وآمل أن لا تصرفك العناية بعيادتك كلية عن الاهتمام بمسائلنا الصغيرة التي نشتغل فيها بالاستنتاج . . .

فأجبته قائلا :

ـــ بالعكس ، فقد كنت الليلة الماضية ألقي نظرة على مذكراتي القديمة

وأبوب بعض النتائج التى وصلنا اليها

— وأحسبك قد ظننت أن مجموعة ذكرياتك قد ختمت على ذلك !

— كلا بل أتمنى أن يضاف اليها شىء جديد

— اليوم مثلا ؟

— اليوم إذا شئت

— والعيادة ؟

— إنى أحل محل جارى فى عيادته حين يغيب عنها ، وهو على أهبة للوفاء بهذا الدين

فنظر إلىّ من خلال عينيه وقد أغمضهما نصف إغماض وقال :

— حسناً ... على أنى أرى أنك لم تكن فى صحة جيدة فى الأيام الأخيرة ... إن برد الصيف أحد من السيف كما يقولون . . .

— لقد لزمت الفراش ثلاثة أيام فى الأسبوع الماضى لبرد أصابنى ، على أنى كنت أظن أنه قد زال كل أثر له

— أجل فانك قوى البنية

— وكيف عرفت إذن أنى كنت مريضاً بالبرد ؟

— إنك تعرف طريقتى فى الاستنتاج . . .

— وماذا دلك على أنى كنت مريضاً ؟

— من الخف الذى فى قدميك . .

فنظرت الى الخف الجديد المصنوع من جلد فاخر ، والذى كنت ألبسه فى تلك الساعة ، وقلت له :

— بالله ما دخله . . .

ولكن هولمز أجابنى قبل أن أتم سؤالى وقال :

— إن هذا الخف جديد ، ولعلك لم تشتره إلا منذ بضعة أسابيع ، ونعله الذى يبدو لى الآن وأنت واضع ساقاً على ساق ، محترق قليلا ، وقد ظننت لحظة أنه احترق وأنت تجففه ، ولكن توجد عند موضع أخمص القدم قطعة

ورق صغيرة مستديرة مكتوب عليها اسم المحل الذى باعه ، فلو كان الخف قد ابتل لزالت هذه الورقة طبعاً ، إذن فلا شك أنك كنت جالساً أمام الموقد باسطاً ساقيك ، ولا يفعل الانسان ذلك فى شهر يونيه إلا إذا كان مصاباً ببرد

وهكذا كان استنتاج هولمز هو البساطة عينها ، متى وقف الانسان على عناصره ... وكأنما قرأ ما يدور بخلدى فقال لى :

— أرانى أنسى نفسى حين آخذ فى الشرح ... على أن النتائج التى لا تتضح مقدماتها هى أصعب تفسيراً ... والآن هل أنت مستعد لأن تذهب معى الى برمنجهام ؟

— بالتأكيد ، وما هى المشكلة التى نسافر من أجلها ؟

— سأشرحها لك فى القطار ، وعميلى ينتظر الآن فى عربة بالباب ، هل يمكنك أن تذهب تواً ؟

— بعد لحظة واحدة

وكتبت كلمة الى جارى ، وهرعت الى زوجتى بالطابق الأعلى ، ثم لحقت بهولمز عند الباب

— إن جارك طبيب ؟

— أجل وقد اشترى العيادة كما اشتريت عيادتى

— عيادة قديمة ؟

— أجل مثل عيادتى ، وقد وجدت العيادتان منذ بنيت المنازل فى هذه البقعة

— ولكن عيادتك أحسن الاثنتين

— ربما ، ولكن كيف عرفت !

— من السلالم ياعزيزى ... فان سلالم عيادتك متآكلة بمقدار ثلاث بوصات من كثرة الاستعمال ... هذا السيد الذى فى العربة هو عميلى المستر هول بيكروفت ... دعنى أقدمك اليه . أسرع بنا أيها الحوذى حتى لا يفوتنا القطار

وكان الرجل الذى واجهنى بالعربة شاباً معتدل الجسم ، تدل ملامحه على الصدق والصراحة ، وكان حسن الهندام ، يرتدى بذلة أنيقة سوداء ، وقبعة

عالية لامعة . ولم أعرف شيئاً عن مشكلته حتى ركبنا عربة بالدرجة الأولى ، وشرعنا فى سفرنا الى برمنجهام

قال هولمز :

ـ أمامنا الآن سفر سبعين دقيقة ، وأريد منك يامستر هول بيكروفت أن تقص على صديقى هذا قصتك الشائقة كما حكيتها لى تماماً ، أو بمزيد من الاسهاب إذا أمكنك ، ومما يفيدنى أن أسمع تسلسل الحوادث مرة أخرى ، انها يا واطسن مشكلة قد تحوى سراً هاماً ، وقد لا تحوى شيئاً على الاطلاق ، ولكنها تشمل من الظواهر الخارقة مايهمك ويهمنى . والآن يامستر بيكروفت لن أقاطعك مرة أخرى

فنظر الى الشاب ثم أنشأ يقول :

ـ إن شر ما فى الأمر انى أبدو فيه فى مظهر الأحمق المخدوع ، وقد لا يكون فى الأمر شىء ... ولعل غيرى كان لا يفعل غير ما فعلت ... ولكنى فقدت عملى ، ولم أكسب شيئاً فى مقابله . اننى لست بارعاً فى قص القصص يا دكتور واطسن ، ولكنى سأحكى لك الوقائع كما حدثت :

« كنت موظفاً بمكتب كوكسون ودودهاوس فى جريبرز جاردنز ، ولكن ساءت حالهم من جراء انهيار أسهم فنزويلا ، وكنت قد قضيت بذلك المكتب خمس سنوات ، ولما أفلس حصلت من أصحابه على شهادة حسنة ، وخرجنا نحن الكتبة وعددنا سبعة وعشرون ، نبحث عن عمل . وقد بحثت فى كل مكان عن وظيفة جديدة ، ولكن كان ثمة كثير من المتعطلين أمثالى . وكان مرتبى فى مكتب كوكسون وودهاوس ثلاثة جنيهات فى الأسبوع . فادخرت سبعين جنيهاً . ولما فصلت صرت أنفق من هذا المبلغ المدخر حتى كاد ينفد عن آخره ، وصرت لا أجد النقود الكافية لارسال الطلبات رداً على اعلانات الصحف الخاصة بالوظائف . وقد بلى حذائى لكثرة ماصعدت سلالم المكاتب . ورغم طول البحث وجدت نفسى قليل الأمل فى أية وظيفة . وأخيراً قرأت اعلاناً عن طلب كاتب لمكتب موسون وويليامز ، وهو مكتب لأعمال الأسهم والسندات

فى لومبارد ستريت ، ويعد أعظم المكاتب من أمثاله فى لندن . وقد نص الاعلان على ان التقدم لتلك الوظيفة يكون بخطاب لا بالحضور شخصياً . وقد بعثت بطلبي مصحوباً بالشهادة التى لدى . دون أن يكون لدى أدنى أمل فى نيل تلك الوظيفة . وجاءنى الرد بعودة البريد وفيـه انى إذا تقدمت بنفسى يوم الاثنين التالى فقد أتسلم العمل فوراً ، بشرط أن يكون مظهرى لائقاً . ولا يدرى أحد كيف يتم قبول الطلبات فى مثل هذه الحالة . وبعض الناس يزعمون ان المدير انما يدس يده فى كومة الطلبات الواردة ، ويأخذ أول طلب يمسك به ... وأياً كان الأمر ، فقد فرحت أشد الفرح حين قبل طلبى ، وكان مرتب الوظيفة الجديدة يزيد جنيهاً فى الأسبوع عن الوظيفة السـابقة فى مكتب كوكسون والعمل واحد تقريباً

« والآن أصل إلى أعجب نقطة فى الموضوع : كنت جالساً فى مسكنى مساء وأنا أدخن سعيداً بفكرة استلام عملى الجديد قريباً ، وإذا بربة الدار قد جاءتنى ببطاقة زائر وقد كتب عليها : « ارثر بينر ، وكيل شؤون مالية » ، ولم أكن قد سمعت بهذا الاسم من قبل ، ولم أدر ماذا يريد هذا الزائر منى ، ولـكنى بالطبع قلت لربة البيت أن تدعه يدخل . وكان رجلا متوسط القامة ، أسود الشعر ، ذا لحية سوداء وأنف لامع . وكان يبدو عليه العجلة ويوجز فى كلامه شأن رجال الأعمال ، وقال لى على الفور :

ــ أنت المستر هول بيكروفت ؟

فأجبته بالايجاب ، ودعوته الى الجلوس . . . فقال :

ــ وقد كنت أخيراً كاتباً بمحل كوكسون وَوُودْهاوس ؟

ــ أجل يا سيدى

ــ والآن صرت من موظفى مكتب موسون ؟

ــ أجل

ــ حسناً .. لقد سمعت ثناء على مقدرتك فى الشؤون المالية .. أنت تذكر المستر پاركر الذى كان مديراً لذلك المحل ؟ إنه لا يكف عن الثناء عليك

« وقد سرنى سماع ذلك طبعاً . . . والواقع أنى كنت أؤدى عملى فى ذلك المكتب على ما يرام ، ولكننى لم أكن أتوقع أن أكون موضوع الحديث فى دوائر الأعمال على هذا الوجه . . .

ثم قال لى :

ــ هل أنت قوى الذاكرة ؟

فأجبته فى تواضع :

ــ إن ذاكرتى لا بأس بها

ــ وهل كنت على اتصال بسوق الأوراق المالية فى أثناء تعطلك عن العمل ؟

ــ أجل ، فانى أقرأ بيان أسعار الأوراق المالية فى الصحف صباح كل يوم

ــ هذه هى دلالة التقدم والنجاح ، لعلك لاترى ضيراً إذا سألتك عن بعض الأسعار : ما سعر أسهم إيرشيرز ؟

ــ من مائة وخمسة الى مائة وخمسة وربع

ــ وأسهم نيوزيلاند الموحد ؟

ــ مائة وأربعة

ــ وبريتش بروكن هيلز ؟

ــ من سبعة الى سبعة شلنات وستة بنسات

ــ هذا بديع ! إن هذا يؤيد ماسمعته عنك ، اسمع يابنى : انك أعظم من أن تكون كاتباً فى محل موسون !

« وأدهشنى هذا القول منه ، فقلت له :

ــ إن غيرك يامستر بينر قد لايقدرنى مثل تقديرك ... لقد بحثت كثيراً حتى وقفت الى هذه الوظيفة . وإنى سعيد بها

ــ كلا يارجل ، بل أنت أكبر منها ... ان ما أعرضه عليك قليل بالنسبة لكفاءتك ، ولكن إذا قورن بتلك الوظيفة لدى موسون ، كان كالضوء الى جانب الظلام ... متى تستلم عملك الجديد فى محل موسون ؟

— يوم الاثنين المقبل

— ها ... ها ... أراهن أنك لن تذهب

— وكيف ذلك ؟

— لأنك فى ذلك اليوم ستكون مدير شركة حدايد فرانكو - ميدلاند ليمتد ، وهى شركة لها مائة وأربعة وثلاثون فرعاً فى مدن فرنسا وقراها ، فضلا عن فروعها فى بروكسل وسان ريمو

« فقلت له :

— إنى لم أسمع قط باسم هذه الشركة

فأجاب قائلا :

— ربما لم تسمع بها لأنها تعمل فى هدوء ودون ضجة ، وقد تم الاكتتاب فى رأس مالها بين أفراد معدودين ، وهى أعظم من أن تعرض نفسها على الجمهور . وأخى هارى بينر هو مؤسس الشركة ، وسيكون مديراً عاماً لها . ولما علم انى هنا طلب منى أن أختار له شاباً قديراً لكى يتولى ادارة العمل ، وقد سمعت باركر يثنى عليك فجئت اليك تواً ... على انه لا يمكننا أن نعرض عليك مرتباً أكثر من خمسمائة جنيه فى البداية

« فصحت مندهشاً :

— خمسمائة جنيه فى السنة ؟!

— هذا فى البداية ، ولكن ستكون لك عمولة بنسبة واحد فى المائة على كل الصفقات التي يعقدها موظفوك ، وثق أن هذه العمولة سوف توازى مرتبك على الأقل

— ولكنى لا أعرف شيئاً عن البضائع الحديدية !

— يكفى انك بارع فى الأرقام !

« وشعرت كأن رأسى يدور ، ولم أستطع الثبات فى مقعدى ، ولكن خطر لى شيء من الشك ، فقلت له :

— يجب أن أكون صريحاً معك ... إن موسون لن يدفع لى سوى مائتي

جنيه فى السنة ولـكن العمل عنده ثابت مضمون البقاء ، أما هذه الشركة التى حدثتنى عنها فانى فى الواقع لا أعلم عنها شيئاً

« فبدا عليه السرور وقال :

ــ هذه براعة منك ، انك الرجل الذى نحتاج اليه ... فأنت رجل لا يسهل إقناعه ، وهذا هو المطلوب فى ميدان الأعمال . والآن اليك ورقة مالية بمائة جنيه ... فاذا قبلت أن تشتغل معنا ، فيمكنك أن تضعها فى جيبك تواً ، على انها جزء من مرتبك

« فقلت له :

ــ هذا جميل ... متى أتسلم عملى عندكم ؟

« فأجاب قائلا :

ــ يجب أن تكون فى برمنجهام غداً فى الساعة الواحدة بعد الظهر ، وفى جيبي الآن خطاب تقدمه الى أخى ، وستجده بشارع كوربوريشن رقم ١٢٦ ب حيث مكاتب الشركة الموقتة ، وطبعاً لا بد أن يؤيد تعيينك ، ولـكن فيما بيننا ، يمكنك أن تعد نفسك معيناً بالفعل

« فقلت له :

ــ إنى لا يمكن أن أعبر لك عن شكرى يامستر بينر

« ــ لا شىء يابنى ، انك نلت ماتستحقه ، وهناك مسألتان صغيرتان يجب أن أرتبهما معك ... هناك بجانبك رقعة ورق .. فأرجو منك أن تكتب عليها : « إنى أقبل أن أشتغل مديراً لادارة شركة فرانكو ميدلاند هاردوير ليمتد بمرتب قدره خمسمائة جنيه فى السنة بصفة مبدئية »

« فكتبت ما طلبه منى ، ودس رقعة الورق فى جيبه ، ثم قال لى :

ــ وهناك مسألة أخرى ، ماذا تنوى أن تفعل مع محل موسون ؟

« وكنت فى جذلى قد نسيت كل شىء عن محل موسون ، فقلت له :

ــ سأكتب لهم استقالتى

« فرد قائلا :

ــ هذا ما لا أريده منك ، فقد حدث خلاف شديد بشأنك بيني وبين مدير محل موسون ، وقد اتهمني بأني أغريتك بترك العمل في ذلك المحل ، وقال غير ذلك حتى غضبت وقلت له : « إذا أردتم موظفين أكفاء ، فيجب أن تدفعوا لهم مرتبات طيبة» . فرد عليّ قائلا : «انه يؤثر المرتب القليل عندنا على مرتبكم الكبير » فقلت له : «أني أراهنك انه حين يسمع عن المرتب الذي أعرضه عليه ، فلن يفكر في المجيء اليكم» . وعندئذ رد قائلا : «لقد انتشلناه من هوة البؤس ، فلن يتركنا بهذه السهولة » ، وهكذا قال !

« ولما سمعت ذلك ثارت ثائرتي ، وقلت لزائري :

ــ ياله من وغد ! اني لم أره قط في حياتي ، فلماذا أجامله ؟ إني لن أكتب استقالة إذا كنت أنت تؤثر ذلك

« فقام من مقعده وقال :

ــ أحسنت ... وأنا أعد ذلك وعداً منك ... اني مسرور إذ حباني القدر بذلك الأخ الطيب ... هاك المائة جنيه . وهاك الخطاب الى أخي . لا تنس العنوان : شارع كوربوريشن رقم ١٢٦ ب . . . وتذكر أن الموعد هو الساعة الواحدة بعد ظهر غد ... عم مساء وأرجو لك حظاً سعيداً



« هذا هو الحديث الذي دار بيني وبينه بقدر ما تعيه ذاكرتي ، ويمكنك يا دكتور واطسن أن تقدر مدى سروري لهذا الحظ الذي وافاني بغتة ... لقد أرقت نصف الليل من التفكير فيه ، وفي اليوم التالي سافرت الى برمنجهام ووصلت قبل الموعد المحدد بكثير ، فقصدت الى فندق في نيو ستريت ثم ذهبت الى العنوان الذي ذكر لي قبل الموعد المحدد لي بربع ساعة . وكان رقم ١٢٦ ب عبارة عن ممر بين دكانين كبيرين يؤدي الى سلم حلزوني من الحجر تطل عليه عدة شقق اتخذت مكاتب للشركات وأصحاب المهن . وكانت ثمة لافتات بأسماء المستأجرين في أسفل الحائط ولكني لم أجد بينها اسم ميدلاند هاردوير كمباني ليمتد . ووقفت لحظة وقد أحسست قلبي يسقط بين جنبيّ أسائل نفسي هل

كنت موضع خدعة دنيئة ، وعندئذ جاءنى رجل يشبه الرجل الذى زارنى الليلة السابقة ، ويماثله فى قوامه وصوته ، ولكنه كان حليق الذقن ، وقال لى :
« هل أنت المستر هول بيكروفت ؟ » ، فأجبته قائلا : « نعم »
ــ آه . لقد كنت أنتظرك ولكنك جئت قبل الموعد بقليل . لقد تسلمت اليوم خطاباً من أخى يثنى فيه عليك
ــ لقد كنت أبحث عن لافتة تحمل اسم الشركة
ــ إننا لم نعلق بعد لافتة باسم الشركة ، لأننا لم نستأجر المكتب إلا فى الأسبوع الماضى فقط . تعال معى الآن الى المكتب لنتحدث معاً
« فتبعته الى سلم طويل ، قادنى الى غرفتين فى الطابق الأعلى كانتا خاليتين من الأثاث ومن الستائر . وخيب منظرهما أملى ، فقد كنت أتوقع أن أجد مكتباً فخما يحوى مكاتب لامعة ، وعدداً من الكتبة كما اعتدت أن أرى المكاتب . ونظرت متعجباً الى مكتب صغير وكرسيين قديمين وسلة مهملات ، هى كل ما تحويه الغرفة الأولى . وكأنما أدرك الرجل ما وراء هذه النظرة فقال لى :
« لا يثبطن من همتك مرأى هذه الغرفة ، فان روما لم تبن فى يوم واحد. وعندنا أموال طائلة ولكنا لم ننفق كثيراً منها بعد فى تأثيث مكتب . أرجو منك أن تجلس هنا وتطلعنى على الخطاب الذى معك
« فأعطيته الخطاب وجعل يقرأه بعناية ثم قال : « يبدو لى انك أثرت تأثيراً طيباً فى نفس أخى أرثر . وأنا أعرف انه دقيق فى حكمه على الناس . ولا يسعنى إلا أن أنزل على حكمه فيمكنك أن تعد نفسك قد عينت فعلا » ، فسألته :
ــ وما نوع العمل الذى أؤديه ؟
« ــ إنك ستدير فى البداية فرعنا فى باريس ، وهو يورد الآنية الخزفية المصنوعة فى انجلترا الى دكاكين مائة وأربعة وثلاثين عميلا فى فرنسا ، وسيتم شراء البضاعة فى مدى أسبوع ، وفى خلال هذه المدة ستبقى هنا فى برمنجهام وتؤدى عملا نافعاً

— وما هو هذا العمل ؟

ورداً على سؤالى هذا ، تناول كتاباً ضخما أحمر اللون من أحد أدراج المكتب وقال لى : « هذا دليل العناوين فى باريس وبه أسماء الأهالى وأنواع المهن التي يمارسونها . وأريد منك أن تأخذ معك هذا الكتاب وتضع علامة أمام اسم كل تاجر يبيع الحدايد . ونحن يهمنا جداً أن نحصل على أسماء هؤلاء التجار وعناوينهم

فقلت له :

— لا ريب أن هناك كشوفاً مبوبة ؟

— أجل ولكنها لا يعتمد عليها . وطريقة التبويب مختلفة عن طرقنا . فهيا ابذل همة فى هذا العمل وسلمنى الكشوف جاهزة يوم الاثنين القادم ظهراً ، وإذا أبديت همة ونشاطاً فان الشركة ستقدرك حق قدرك

« وعدت الى الفندق متأبطاً ذلك الكتاب الضخم ، وفى نفسى أحاسيس متباينة : فمن جهة كنت قد عينت فعلا فى الوظيفة وفى جيبى مائة جنيه ، ومن جهة أخرى كان منظر المكتب ، وعدم وجود لافتة باسم الشركة ، وغير ذلك من القرائن ، مما بعث الشك فى نفسى . وأياً كان الأمر فقد كان فى جيبى مبلغ كبير فأقبلت على عملى ومكثت أؤديه يوم الأحد بطوله ولكن لما حل يوم الاثنين لم أكن قد أنجزت إلا جزءاً قليلا من الكتاب . فذهبت الى صاحب العمل ووجدته فى المكتب نفسه وقال لى أن أستمر فى نسخ أسماء تجار الحدايد ، وأن أعود اليه يوم الأربعاء . وفى هذا اليوم لم أكن قد أنجزت المهة كلها ، فأعطانى مهلة أخرى الى يوم الجمعة ، أى أمس . وعندئذ قصدت الى المستر هارى بينر فقال لى : « شكراً جزيلا . انى لم أقدر صعوبة المهمة حق قدرها . ثق ان هذه الكشوف ستفيدنا كثيراً فى عملنا » ، ثم استطرد قائلا : « والآن أريد منك أن تعد لى كشوفاً بأسماء تجار الأثاث ، لأنهم يبيعون أيضاً آنية الخزف فى حوانيتهم ، وعليك أن تأتى الىّ فى الساعة السابعة من مساء غد ، لتطلعنى على كيفية سير العمل . ولكن لا تجهد نفسك كثيراً بل قد يفيدك أن

تمضى ساعتين فى الملاهى بعد أداء عملك كل ليلة »

« وضحك وهو يقول ذلك ، ولحظت حين فتح فاه ان السن الثانية بفكه الأيسر محشوة بالذهب بطريقة غير متقنة »

وهنـا حك شرلوك هولمز يديه سروراً ، فى حين نظرت أنا الى عميلنا مندهشا ، واستطردهذا يقول : «لقد تدهشك هذه الملاحظة يادكتور واطسن ولـكن الواقع انى حين كنت أتكلم مع الشخص الآخر فى لندن وضحك سروراً لاعتزامى عدم الذهاب الى مكتب موسون ، لحظت إذ ذاك ان السن الثانية بفكه الأيسر محشوة هكذا ! وقد لفت نظرى لمعان الذهب فى الحالتين . فاذا أضفت الى ذلك تشـابه القد والصوت بين الرجلين ، وان اختلافهما لا يعدو حلق الذقن ، لم يبق هنـاك شك فى انهما شخص واحد . صحيح ان الأخوين قد يتشابهان كثيراً ولـكنهما لا يتشابهان حتى فى حشو سن معينة لدى كل منهما بطريقة رديئة ... ثم انحنى لى تحية ووجدت نفسى فى الطريق وأنا لا أكاد أدرى أأمشى على قدمى أم على رأسى ! وعدت الى الفندق فصببت ماء بارداً على رأسى وجلست أفكر : لمـاذا بعثنى من لندن الى برمنجهام ، ولماذا سبقنى الى هذه المدينة الأخيرة ؟ ولماذا أرسل خطابا منه واليه ؟ لقد كان ذلك كله أمراً محيراً لم أستطع أن أدرك له معنى . ثم خطر لى أن ماأغلق على فهمه ، قد يبدو واضحا للمستر شرلوك هولمز ، ولذا ركبت قطار الليل المسافر الى لندن وزرته صباح اليوم وهأنذا عائد معكما الى برمنجهام ! »

ولما أتم الشاب قصته العجيبة ، سكتنا برهة ثم قال لى شرلوك هولمز : «ما رأيك ياواطسن ؟ أليس هذا حادثا طريفا ؟ أحسبك تقرنى على اننا إذا تحدثنا مع المستر أرثر بينر فى المـكتب الموقت لشركة فرانكو ـ ميلاند هاردوير ليمتد ، فان ذلك سيكون تجربة شائقة لنا »

فقلت له : « ولـكن كيف يتأتى لنا ذلك ! »

فرد المستر بيكروفت قائلا : « هـذا أمر سهل ، فانى سأقدمكما اليه على انكما صديقان لى تبحثان عن وظيفة ، ومن الطبيعى جداً أن أقدمكما الى مدير الشركة » ...

فقال هولمز : « هـذا صحيح ، بودى أن ألقى نظرة على ذلك الرجل ، لعلى أعرف غرضه من هذه اللعبة ، ولـكن ياصديقى ، ماهى الميزات التى تجعله يقدرك كل هذا التقدير ؟ أم ان هناك » ...

ولـكنه سكت ولم يتم كلامه ، وأخذ ينظر من نافذة القطار ، ولم يقل كلمة أخرى حتى وصلنا الى نيوستريت

وفى الساعة السابعة من مساء اليوم نفسه ، كنا ثلاثتنا سائرين فى شارع كوربوريشن نحو مكتب الشركة ، وقال عميلنا : « لا فائدة من المجىء قبل الموعد المحدد ، فانه يبدو لى انه لا يأتى الى المكتب إلا للقائى وقبل ذلك يكون المكتب خاويا »

فقال هولمز : « هذه ملاحظة هامة »

ثم صاح الشاب بغتة : « لقد قلت لـكما ! هاهوذا يمشى أمامنا .. هناك ! »

وأشار الى رجل حسن الهندام صغير القد يسير على الجـانب الآخر من الشارع ، ورأيناه يشير الى غلام يبيع الصحف ويشترى منه جريدة مسائية ، ثم دلف الى باب ، فقـال هول بيكروفت : « ها هو مكتب الشركة ... انه صاعد اليه ، هيا بنا »

وصعدنا معه خمس طبقات من الدار ، حتى وجدنا أنفسنا عند باب مفتوح نصف فتحة ، فقرعه عميلنا قرعاً خفيفاً مستأذناً فى الدخول ، وصاح صوت من الداخل يقول : « ادخل » فدخلنا فى غرفة خاوية من الأثاث كما وصفها هول بيكروفت لنا قبلا ، وجلس الرجل الى المكتب الوحيد الذى بها ، وكان قد بسط الجريدة المسائية أمامه ، ولمـا نظر الينا خيل الى ان دلائل الحزن والرعب معاً مرتسمة على وجهه ، وكان العرق يتصبب من جبينه وقد شحب وجهه حتى شـابه وجوه الموتى ، وكان ينظر نظرات تائهة ، وكأنه لم يعرف الـكاتب الذى استخدمه ، فقـال له بيكروفت : « إن عليك دلائل المرض يامستر بينر »

فأجاب ، وهو يبذل جهده لتمالك أعصابه : « أجل . إنى منحرف الصحة ..

من هذان السيدان اللذان أحضرتهما معك ! »

فأجاب بيكروفت بلهجة طبيعية : «هذا هو المستر هاريس من برموندزى، والآخر هو المستر برايس من هـذه المدينة ، وهما من أصدقائى ، ولهما خبرة بالعمل ، ولـكنهما متعطلان منـذ فترة من الزمن ، وقد جاءا معى لعلهما يعينان بالشركة »

فقال وقد ابتسم ابتسامة باهتة : «هذا ممكن ... أجل قد نجد لـكما عملا عندنا ، ما هو العمل الذى تتقنه يامستر هاريس ؟ »

فأجاب شرلوك هولمز : « أنا كاتب حسابات »

— أجل قد نحتاج الى كاتب حسابات ... وأنت يامستر برايس ؟

فقلت له : « أنا كاتب قيد ... »

— إن أملى وطيد فى أن تجد الشركة عملا لـكما عندها ... وسأخبركما حين أصل الى نتيجة بهذا الشأن ، والآن أرجو أن تذهبوا ... بالله اتركونى وحدى !

وقال هذه الجملة الأخيرة بشكل يدل على أن صبره قد نفد ، ولم يطق كتمان شعوره لحظة أخرى ، فتبادلت وهولمز نظرة ذات معنى ، وخطا هول بيكروفت خطوة نحو المـكتب وقال له : « لا تنس يامستر بينر انى جئت بناء على موعد لـكى أتلقى تعليماتك »

فقال بلهجة أهدأ من قبل : « أجل يامستر بيكروفت ، يمكنك أن تنتظر هنـا لحظة ، ويمكن صديقيك أن ينتظرا معك ، وسأكون فى خدمتكم بعد ثلاث دقائق »

ثم قام وحيانا بانحناءة من رأسه وذهب الى باب فى أقصى الغرفة وأغلقه وراءه

فقال هولمز همساً : « ماهذا ... أيريد أن يهرب منا ؟ »

فأجابه بيكروفت : « هذا محال »

— لماذا ؟

— لأن ذلك الباب يؤدى الى غرفة داخلية ولا منفذ لها سواه

— وهل الغرفة الأخرى تحوى أثاثاً ؟

— لقد كانت خالية أمس

فقال هولمز :

— إذن بالله ماذا يفعل فيها ؟ إن فى هذا الأمر شيئاً لا أدركه ، لقد رأيت هذا المدعو بينر وقد تولاه رعب عجيب ، فما الذى ملأه رعباً ؟

فقلت له :

— لقد ارتاب فى أن نكون من رجال البوليس السرى

وقال بيكروفت :

— أجل هذه هى الحقيقة

فهز هولمز رأسه وقال :

— انه لم يصفر وجهه رعباً حين رآنا ، بل كان خائفا من قبل ... ولكن قاطعه صوت حاد آت من الغرفة الداخلية ، فقال بيكروفت :

— ما معنى أن يقرع باب غرفته ؟

ثم تكرر الصوت نفسه ، وقد صار أعلى من قبل ، ونظرت الى هولمز ، فوجدته جامد الوجه ، وقد مال الى الأمام متربصا ، ثم سمعنا صوت جسم يرتطم بخشب فى الغرفة الأخرى ، فقفز هولمز نحو الباب ، ودفعه وساعدناه بما نملك من قوة حتى انفتح ، وكانت الغرفة خالية من كل شىء ، ولكن كان فى ركن منها باب آخر ، ففتحه هولمز ، ورأينا على الأرض سترة وصديرية ، وراعنا منظر مدير شركة فرانكو - ميدلاند معلقا وراء الباب ، وقد ربط رقبته برباط ، وعلق بحديدة ، وكانت قدماه ترتطمان بالباب ، فتذكرنا ذلك الصوت الذى سمعناه . فأمسكته تواً من وسطه ، وفك هولمز وبيكروفت القيد الذى حول عنقه ، وحملناه الى الغرفة الأخرى ، وأرقدناه على الأرض ، وكان يتنفس بصعوبة ، فقال لى هولمز : « مارأيك فى حالته ياواطسن ؟ »

فانحنيت فوقه وفحصته ، وكان نبضه ضعيفا متقطعا ، ولكن أنفاسه صارت

أطول من ذى قبل ، وبدأت أهداب عينيه تخفق قليلا ، فقلت : «لقد أشرف على الموت ، ولكنه نجا الآن ، وسيعيش . افتح النافذة . وناولنى قارورة الماء»

وجعلت أصب الماء البارد على وجهه ، وأرفع ذراعيه وأخفضهما حتى عاد تنفسه طبيعيا ، ثم قلت : « المسألة الآن مسألة وقت فقط »

ووقف هولمز بجوار المكتب ، ويداه فى جيبى سراويله وذقنه مائل الى صدره ، وقال : « أرى أن ندعو البوليس الآن ... ولكن يحسن بنا أن نعطى البوليس قضية كاملة حين يأتى »

فقال بيكروفت : « إن الأمر فى نظرى لغز عجيب ، بالله لماذا جاء بى الى هنا ثم إذا به ... »

قال هولمز : « إن الأمر واضح ... وهذه الحركة المفاجئة منه فيها التفسير الكافى ! »

ـــ اذن أنت تفهم الباقى ؟

ـــ إنى أرى الأمر واضحاً ... ما رأيك يا واطسن ؟

فهززت كتفى وقلت :

ـــ أعترف بأنى لا أفقه شيئاً

فقال هولمز :

ـــ لو تتبعت الحوادث منذ البداية ، لأيقنت أنها تؤدى الى نتيجة واحدة : ان المسألة كلها تتوقف على نقطتين : الأولى حفز بيكروفت الى كتابة إقرار يقبل به الدخول فى خدمة هذه الشركة الموهومة

ـــ أحسبنى لا أفهم هذه النقطة

ـــ حسناً ، لماذا أراد منه أن يكتب ذلك الاقرار ؟

ثم التفت الى بيكروفت وقال له :

ـــ ألا ترى يا صديقى أنه أراد الحصول على نموذج من خطك ؟

ـــ ولكن لماذا ؟

ـــ لماذا ؟ اننا حين نجيب عن هذا السؤال نكون قد قطعنا مرحلة أخرى فى سبيل حل المشكلة . لماذا ؟ لا يمكن أن يوجد من الأسباب سوى سبب واحد : إن أحداً من الناس أراد أن يقلد خطك ، فكان لزاماً عليه أن يحصل

على نموذج منه . . والآن إذا انتقلنا الى النقطة الأخرى ، رأينا أن كلا من النقطتين تلقى ضوءاً على الأخرى : هذه النقطة الثانية هى أن بينر طلب إليك أن لا تستقيل من وظيفتك ، بل تدع مدير تلك الشركة الكبيرة يتوقع أن يجيئه رجل يدعى المستر هول بيكروفت لم يكن قد رآه قط من قبل ، وأن يتسلم عمله بالمكتب صباح يوم الاثنين

وهنا صاح عميلنا قائلا :

— رباه ! ما كان أغبانى !

— والآن تدرك الغرض من مسألة الخط ، افرض أن أحداً من الناس تقدم ليشغل وظيفتك ، وخطه يختلف تماماً عن الخط الذى كتبت به طلب الاستخدام ، لا شك أن الخدعة كانت تنكشف فى هذه الحالة،ولكن افرض أن ذلك الوغد قد عرف كيف يقلد خطك ، ان مركزه عندئذيصبح وطيداً. هذا مع افتراض أن أحداً بالمكتب لم يرك قط من قبل ؟

— لا أحد ...

— وكان من الضرورى بالطبع أن يحول بينك وبين الاتصال بأى شخص قد يخبرك بأن هناك شخصاً تقدم باسمك وتسلم العمل فى مكتب موسون . ولذا دفعوا إليك ذلك المبلغ المغرى على حساب مرتبك المزعوم ، واستدرجوك الى هذه المدينة حيث كلفت أداء عمل وراء عمل لمنعك من السفر الى لندن ، كيلا تنكشف اللعبة ، أحسب أن هذا كله واضح لدرجة كافية

— ولكن لماذا ادعى هذا الرجل أنه أخوه المزعوم ؟

— هذا أيضاً أمر واضح ، فان اثنين من الناس فقط مشتركان فى هذه المسألة ، أحدهما يمثلك فى مكتب موسون ، والثانى ادعى أنه عينك فى الوظيفة، ثم لم يرض أن يشرك معه شخصاً ثالثاً ليمثل دور المدير العام الذى يشغلك فى برمنجهام . وعلى ذلك بدّل مظهره بقدر ما استطاع وقدر أن تنسب التشابه الى كون الاثنين أخوين . ولولا حشو إحدى أسنانه بالذهب لجازت الخدعة

وعندئذ هز هول بيكروفت قبضة يده فى الهواء وقال :

— رباه ... بينما كنت موضوع هذه الخدعة المحكمة ، ماذا فعل الآخر فى مكتب موسون ؟ خبرنى يا مستر هولمز : ما الذى ينبغى لنا عمله الآن ؟

ـــ يجب أن نرسل برقية الى مكتب موسون

ـــ ان المكتب يغلق الساعة الثانية عشرة ظهر يوم السبت

ـــ لا بأس ، ربما يكون هناك حاجب

ـــ آه . . . ان هناك حارساً دائماً لحماية الاوراق المالية التى يحتفظون بها

ـــ حسناً . إذن نرسل برقية لنسأل عما ان كان كل شيء على ما يرام ، وعما ان كان هناك كاتب يشتغل باسمك . هــذا كله واضح ، ولــكن الذى لم أفهمه بعد هو : لماذا دلف هذا الوغد الى الغرفة الداخلية حين رآنا ، وشنق نفسه تواً ؟

وهنا سمعنا وراءنا صوتاً أجش يصيح : « الجريدة ! »

وكان الرجل قد جلس ، شاحب الوجه مخيف المنظر ، وقد عاد اليه وعيه وصار يتحسس رقبته بيديه . فصاح هولمز قائلا : « الجريدة ؟ طبعاً ! ماأغباني! كيف لم ألتفت لهذه الجريدة ؟ لا شك ان فيها سر المسألة كلها ! »

وبسطها على المكتب . وما لبث أن صاح صيحة الفوز وقال : « انظر يا واطسن الى هذه الجريدة ، انها جريدة ايفننج ستار الصادرة فى لندن ، انظر الى هذه العناوين ، « جريمة فى دوائر الأعمال ، جريمة قتل فى مكتب موسون ووليامز ، محاولة السرقة ، القبض على المجرم ! » . ها هنا ما نبحث عنه ، أرجو منك ياواطسن أن تقرأ لنا بصوت عال »

وظهر من موضع الخبر فى الجريدة انه خبر اليوم فى لندن ، وجاء فيه :

«حدث بعد ظهر اليوم شروع فى سرقة انتهى الى جريمة قتل وقبض على المجرم . فقد ظل محل موسون وولمز عدة سنين وهم أمناء على أوراق مالية تزيد قيمتها على مليون جنيه ، وقدر مدير المحل التبعات الجسيمة الملقــاة على عاتقــه ، فاتخذ لتلك الأوراق خزائن من أحدث طراز ، واستخدم حارساً مسلحاً يسهر عليها ليل نهار ، وفى الأسبوع الماضى استخدم المحل كاتباً جديداً يدعى هول بيكروفت ، والظاهر أن هذا الشخص هو نفسه المدعو بدنجتون اللص الذى اشتهر بقدرته على التزوير ، وقد خرج مع أخيه أخيراً من السجن

بعد قضاء مدة خمس سنوات كان قد حكم عليهما بهما مع الأشغال الشاقة ، وبوسائل لا تزال خافية حتى الآن ، استطاع أن ينال وظيفة فى ذلك المكتب تحت اسم مستعار ، وانتهز هذه الفرصة فأخذ مقاسات لمختلف الأقفال ووقف على مواضع الخزائن التي تحفظ فيها الأوراق المالية .

«ومن المعتاد فى محل موسون أن ينصرف الموظفون عند ظهر كل سبت ، ولذا عجب الجاويش تيوسون ، من قوة بوليس المدينة ، حين رأى رجلا ممسكا بكيس ، يهبط الدرج عند الساعة الواحدة والثلث ، وثارت ريبته فتبعه ، واستطاع القبض عليه بمساعدة الكونستابل بولوك بعد صراع عنيف . واتضح أنه كان قد ارتكب جريمة سرقة ضخمة ، فقد وجدت فى ذلك الكيس أوراق مالية قيمتها نحو مائة ألف جنيه من سندات السكة الحديدية الأمريكية ، وأسهم عديدة من أسهم المناجم والشركات . ولما فتشت الدار ، وجدت جثة الحارس المسكين وقد ألقيت فى الخزانة الكبرى ، وكانت ستبقى بها حتى صباح الاثنين لولا أن اكتشفها البوليس . واتضح أن رأسه قد حطم بضربة قوية من الخلف . ولاشك ان بدنجتون قد استطاع الدخول الى المكتب بعد خروجه مع الموظفين ظهراً ، مدعياً أنه قد نسى شيئاً ما . ثم سارع الى اغتيال الحارس . وبعدئذ فتح الخزانة الكبرى وخرج بغنيمته وكاد يظفر بها لولا يقظة الجاويش تيوسون . أما أخو بدنجتون الذى يشترك معه عادة فى جرائمه ، فلم يظهر فى هذه الجريمة الجديدة ، كما تدل المعلومات التى وصل اليها البوليس حتى الآن ، ومع ذلك فانه جاد فى البحث عنه »

ولما انتهيت من تلاوة هذا النبأ ، قال هولمز ، وهو ينظر الى الرجل :

ـــ حسناً . يمكننا أن نوفر على البوليس جهده فى هذا المجال .. إن الطبيعة البشرية مزيج عجيب ياواطسن ، هاأنت ترى أن مجرماً وقاتلا قد كسب لنفسه محبة أخيه الى حد دفعه الى الانتحار حين رأى ان ذلك الأخ فى سبيله الى المشنقة ... أما نحن فليس لنا خيار ، أرجو منك يا مستر بيكروفت أن تذهب أنت لتبلغ البوليس ، فى حين نحرس أنا والدكتور واطسن هذا الرجل !

المعاهدة البحرية

-٥-

كان شهر يوليو الذى تلا زواجى ، شهراً خالداً ، إذ تخللته ثلاث قضايا ، كان لى حظ الاشتراك فيها مع شرلوك هولمز ، ودراسة أساليبه عن كثب . وأنا أجدها مسجلة فى مذكراتى تحت العناوين الآتية : « مغامرة البقعة الثانية » و « مغامرة المعاهدة البحرية » و « مغامرة الكابتن المكدود » . على أن الأولى من هذه القضايا الثلاث ، تتعلق بمصالح ذات أهمية بالغة ، وذات اتصال وثيق ببعض الأسر الكبرى فى المملكة ، الأمر الذى يحول دون نشرها فى الوقت الحاضر . ولذا انتقل الى القضية الثانية ، وقد كانت فى حينها ذات أهمية قومية ، وامتازت بعدة حوادث جعلت لها طابعاً خاصاً :

كان لى منذ عهد التلمذة ، صديق حميم يدعى « برسى فلبس » ، فى مثل سنى تقريباً ، وإن كان يسبقنى بسنتين فى الدراسة . وكان تلميذاً نابغاً ، يحوز كل جائزة تعدها المدرسة للتفوق ، ثم منح جائزة الدراسة المجانية فى جامعة كامبردج . وأذكر ، منذ الصغر ، أنه كان له سند قوى ، فقد كان خاله هو اللورد هولدهرست ، السياسى المشهور من حزب المحافظين . على أن قرابته به لم تفده شيئاً فى المدرسة ، بل أنها بالعكس ، كانت تغرينا بما كسته وضربه... ولكن الحال اختلفت حين بدأ حياته العملية ، فقد سمعت ، وقتئذ ، إنه بفضل كفاءته ، وبفضل نفوذ خاله قد عين فى وظيفة هامة بوزارة الخارجية ، على أنى نسيته تماماً بعد ذلك ، ولم أذكره إلا حين جاءنى منه هذا الخطاب :

« بريابرى ــ ووكنج

« عزيزى واطسن . لست أشك أنك تتذكر « الضفدع » فيلبس ، الذى كان بالسنة الخامسة ، حين كنت أنت بالسنة الثالثة . ولعلك علمت أننى ، بفضل نفوذ خالى ، قد حصلت على وظيفة حسنة بوزارة الخارجية ، وإنى صرت موضع الثقة وفى مكان الشرف ، حتى وقع لى حادث فظيع ، يوشك أن يقضى على مستقبلى

« ولا حاجة بى ، لأن أكتب لك تفاصيل هذا الحادث المروّع ، ولكنى سأقص عليك تفاصيله إذا لبيت طلبتى . ولقـد شفيت أخيراً من حمى مخية أصابتنى ، ولا زلت أشعر باعياء شديد . وكل رجائى هو أن تأتى مع صديقك المستر شرلوك هولمز لزيارتى ، فانى أود أن أعرف رأيه فى مسألتى ، وان تكن السلطات تعتقـد أنه لا يمكن عمل شيء بعد كل ما عمل . فأرجو أن يحضر معك ، وأن يكون ذلك فى أقرب وقت مستطاع ، فان كل دقيقة بمثابة ساعة تمر علىّ وأنا فى هذا القلق ، وأرجو أن تبين له أنى إذا لم ألجأ إليه قبل اليوم ، فليس ذلك لعدم تقديرى كفاءته حق قدرها ، بل لأنى كنت مريضاً وغائباً عن وعي . والآن بدأت أدخل دور النقاهة، وإن أكن منع نفسى من التفكير فى المسألة ، خشية أن تصيبنى نكسة . فأرجوك أن تبذل قصارى جهدك لاحضاره معك

زميلك القديم فى المدرسة

برسى فيلبس »

وقد أثر فىّ هذا الخطاب ، وخصوصاً تأكيد كاتبه بأن أحضر إليه هولمز، وعزمت أن ألبي طلبه ، حتى وإن حالت دونه صعوبة . وكنت أعرف أن هولمز يحب مهنته ، وانه لا يضن بمعونته على أى عميل يطلبها . ووافقتنى زوجتى على أنه لا يصح الابطاء فى عرض الأمر عليه ، وهكذا لم تمض ساعة على تناول طعام الفطور ، حتي كنت فى مسكنى القديم بشارع بيكر

وكان هولمز جالساً الى منضدته ، مرتدياً ثيابه المنزلية ، وهو منهمك فى تجربة كيمائية ، حتى لم يكد يرفع بصره حين دخلت ، فأدركت أنها تجربة تهمه، وجلست على كرسى ذى ذراعين ، صابراً ، حتى ينتهى مما هو بصدده. وقال لى:

ــ سأكون فى خدمتك بعد لحظة يا واطسن

وبعد دقائق معدودة قال لى :

ــ انى مشغول بقضية قتل عادية . ولعلك جئت بما هو خير منها ، فقد عهدتك نذير الاجرام ...

فأعطيته الخطاب ، وقرأه بامعان ، ثم أعاده إلىّ قائلا :

ــ ان كاتبه لم يذكر فيه شيئاً [redacted]

— انه لا يكاد يحتوى شيئا

— ومع ذلك فانى أرى أن الخط يلفت النظر ... إنه خط امرأة !

فقلت له :

— بل خط رجل ...

— كلا ، إنه خط امرأة ! ومن المفيد أن نعلم منذ البداية ، أن صديقك هذا على صلة وثيقة بامرأة ذات إرادة . لقد أثار هذا الخطاب اهتمامى ، فاذا كنت على استعداد ، فهيا بنا نسافر توا الى ووكنج ، لنزور هذا الموظف الدبلوماسى ، الذى فى موقف حرج ، ونرى تلك السيدة التى يملى عليها خطاباته

ولحسن حظنا أدركنا قطاراً قام مبكراً من محطة ووترلو ، وبعد ساعة تقريباً وصلنا الى ووكنج . ووجدنا « بريابرى » بيتاً كبيراً منعزلا ، يتوسط أراضى فسيحة ، على مسيرة دقائق من المحطة ، ولما بعثنا ببطاقتنا مع الخادم ، أدخلنا فى غرفة جلوس فاخرة الأثاث ، ولم تمض دقائق معدودة ، حتى جاءنا رجل أقرب الى البدانة ، واستقبلنا بكثير من الحفاوة ، ولعل سنه أقرب الى الأربعين منها الى الثلاثين ، ولكن حمرة وجهه ، والمرح الذى يشع من عينيه ، يجعلانه أشبه بغلام مشاكس ... وقال لنا وهو يصافحنا بحرارة :

— إنى مسرور لمجيئكما ، لقد مكث برسى يسأل عنكما طول الصباح . إنه فتى بائس ، يتعلق بأى قشة ، وقد طلب الىّ والداه أن أقابلكما ، لأن مجرد ذكر الموضوع يثير أعصابه

فقال له هولمز :

— إننا لا نعرف بعد تفاصيل المسألة . وأنا أرى انك لست فرداً من أفراد أسرته

فدهش الرجل لهذه الملاحظة ، ثم نظر الى الأرض وضحك قائلا :

— إنك طبعاً قد قرأت الحرفين الأولين من اسمى (ج. ه) المنقوشين على القلادة المعلقة بعنقى . . . لقد حسبتُ لحظة انك اكتشفت شيئاً يدل على براعة ... إن اسمى جوزيف هاريسون . ولما كان برسى سيتزوج أختي آنى ، فانى سأصبح من ذوى قرباه ، عن طريق هذا الزواج ... وستلقى أختى فى غرفته لأنها سهرت على العناية به طوال الشهرين الأخيرين ، وأحسب أنه يحسن

بنا أن نلحق بهما تواً ، لأنى أعلم أنه ينتظر مجيئكما بصبر نافد

وأدخلنا غرفة بنفس الطابق الذى تقع به غرفة الجلوس ، وكانت مفروشة بشكل يجعلها تصلح للاستقبال وللنوم ، وقد رتبت أوانى الزهر بعناية فى كل أركانها . ورقد شاب على أريكة تحت النافذة المفتوحة ، وكان شاحب الوجه يدل منظره على الضعف والمرض . وجلست شابة بجانبه ، ولما رأتنا داخلين ، قامت من مقعدها ، وقالت له :

ـــ أأخرج يابرسى ؟

فأمسك بيدها لتبقى ، وقال لى بمودة ظاهرة :

ـــ كيف أنت يا واطسن ؟ ما كنت لأعرفك وقد صار لك شارب . . . هذا بلا ريب صديقك المشهور المستر شرلوك هولمز ؟

فعرفت كلا منهما بالآخر ، ثم جلسنا معه ، وكان الشاب البادن قد تركنا ، ولكن أخته بقيت بالغرفة ، ولا تزال يدها ممسكة بيد الشاب العليل . وكانت بارعة الحسن ، أقرب الى القصر والبدانة ، ولكن لها بشرة صافية ، وعينين نجلاوين ، وشعراً فاحما أثيثا ، زادلون خطيبها شحوبا ، الى جانب بشرتها الرائقة . وقام هذا وجلس على الأريكة ، وقال :

ـــ لا أريد أن أضيع وقتكما ، ولذا أدخل فى الموضوع دون مقدمة

ثم أخذ يقص ما حدث له فقال :

ـــ إننى ، يامستر هولمز ، كنت سعيداً موفقا ، موشكا على الزواج ، وإذا بحادث رهيب يقع لى ، فيبدد كل آمالى فى المستقبل

« ولعل واطسن قد أخبرك انى كنت موظفاً بوزارة الخارجية ، وبفضل نفوذ خالى ، اللورد هولد هيرست ، رقيت بسرعة ، حتى وصلت الى مركز ذى تبعات . ولما صار خالى وزيراً للخارجية ، فى الوزارة القائمة ، عهد الىّ بمهام عديدة ، لا يعهد بها إلا لمن كان موضع الثقة . وقد أديتها كلها على مايرام ، فبات شديد الايمان بمقدرتى وكياستى

« ومنذ عشرة أسابيع تقريباً ـ أو على التحديد يوم ٢٣ مايو الماضى ـ استدعانى الى مكتبه ، وبعد أن أطرى كفاءتى ، أخبرنى بأن لديه مهمة جديدة لى ، لا يكلف بمثلها إلا ذو ثقة . ثم أخرج من مكتبه لفة ورق وقال لى :

— هذه هي الصيغة الأصلية للمعاهدة السرية بين انجلترا وإيطاليا ، التي تسرب نبأها للأسف الى الصحافة . ومن الأهمية بمكان ، أن لايعرف العالم عنها شيئاً أكثر مما عرف . وإني موقن أن سفارتي فرنسا وروسيا على أهبة لأن تدفعا مبالغ فادحة ، في مقابل الوقوف على ما تحويه هذه المعاهدة . وما كانت هذه الأوراق لتخرج من مكتبي لولا ضرورة نسخها . إن لك مكتباً في غرفتك ؟

— أجل ياسيدي

— إذن خذ هذه المعاهدة ، وأوصد عليها مكتبك ، وسأصدر أمراً بأن يسمح لك بالبقاء بعد وقت العمل ، وبعد أن يخرج جميع الموظفين ، حتى تنسخ هذه المعاهدة وأنت مطمئن الى انفرادك ، وحين تنتهي من نسخها ، احتفظ بالأصل والصورة بدرج مكتبك

« فأخذت الورق و . . .

وهنا قاطعه شرلوك هولمز قائلا :

— معذرة . هل كنت وخالك وحدكما أثناء هذا الحديث ؟

فأجاب الشاب قائلا :

— أجل ، ولم يكن في الغرفة غيرنا

— وهل كانت غرفة فسيحة ؟

— أجل ، غرفة مربعة طولها ثلاثون قدماً

— وهل كنتما في وسطها ؟

— تقريباً

— وهل كنتما تتكلمان بصوت منخفض ؟

— إن خالي يتكلم دائماً بصوت منخفض ، وأنا لم أكد أتكلم وقتئذ

فأغمض هولمز عينيه وقال :

— شكراً . . . استمر

واستطرد الشاب قائلا :

— فعلت كما أمرت ، فقد صبرت حتى خرج جميع الموظفين ، وكان أحدهم من زملائي ، وكان يشاركني غرفتي ، ويدعى تشارلس جورو ، وكان عليه أن ينجز أعمالا متأخرة ، فتركته هناك وخرجت لأتناول طعام الغداء .

ولما عدت كان قد خرج ، وكنت مهتما بانجاز تلك المهمة ، لأنى كنت أعرف أن جوزيف ـ أعنى المسترهاريسون الذى رأيته منذ لحظة هنا ـ كان بالمدينة وكان يريد العودة الى ووكنج بقطار الساعة الحادية عشرة مساء ، فأردت أن أصحبه

« ولما بدأت أقرأ المعاهدة قبل نسخها ، أدركت لأول وهلة أنها شديدة الأهمية ، فلم يبالغ خالى إذن فى وصفها . ودون أن أذكر الآن تفاصيلها ، أقول إنها حددت موقف بريطانيا حيال المحالفة الثلاثية ، وانها بينت سياسة هذه البلاد إذا ما تفوق الأسطول الفرنسى على الأسطول الايطالى فى البحر الأبيض المتوسط . وكانت المسائل التى عالجتها مسائل بحرية بحتاً ، وفى نهايتها توقيع ممثلى الدولتين . وقد ألقيت نظرة عليها ، ثم جلست الى مكتبى لأنسخها

« وكانت وثيقة طويلة ، مكتوبة باللغة الفرنسية ، وتحوى ستة وعشرين بنداً ، فجعلت أنسخ بأقصى سرعتى ، ولكن لما وافت الساعة التاسعة مساء ، كنت قد أتممت تسعة بنود فقط ، فتبدد أملى فى إدراك قطار الساعة الحادية عشرة ، وشعرت بالتعب والدوار ، سواء من أثر العشاء ، أو من التعب طول اليوم ، ورأيت أنى إذا تناولت فنجان قهوة فقد ينشط ذهنى . وهناك حاجب يبقى طول الليل فى غرفة بجوار أسفل السلم ، وقد اعتاد أن يعد قهوة على موقد صغير ، للموظفين الذين قد يتخلفون بالوزارة لانجاز أعمال متأخرة . وعلى ذلك دققت الجرس لاستدعائه ، ولشدة عجبى لم يأت هو ، ولكن جاءت امرأة عجوز ضخمة الجسم مرتدية مئزراً ، وقالت إنها زوجة الحاجب ، وانها تقوم بأعمال النظافة ، فكلفتها باعداد فنجان قهوة لى ، ثم نسخت بندين آخرين ، وشعرت بعدهما بمزيد من الدوار ، فقمت أذرع الغرفة رواحاً وجيئة ، ومضى الوقت دون أن تأتى المرأة بالقهوة ، فجعلت أسائل نفسى عن سر هذا التأخير ، ثم سرت فى الردهة لأسأل عنها ، وكان هناك ممر مستطيل خافت الضوء ، يؤدى إلى الغرفة التى أشتغل بها ، وكان المخرج الوحيد منها ، وينتهى هذا الممر إلى سلم حلزونى ، وعند أسفله تقع غرفة الحاجب . وفى منتصف هذا السلم بسطة صغيرة ، ينتهى اليها ممر آخر ، يقود الى سلم ثان

صغير . وهذا السلم يؤدى إلى باب جانبي يستعمله الخدم ، كما يستعمله الموظفون أيضاً اختصاراً للطريق ، إذا جاؤوا من شارع تشارلس ، واليك خريطة بالمكان

وهنا أطلع شرلوك هولمز على رسم كروكى ، فنظر صديق اليه بامعان ، ثم قال له : « شكراً لك . . . استمر ، أحسبنى أتبعك تماماً »

فقال الشاب :

— يهمنى جداً أن تلتفت إلى هذه النقطة : لقد هبطت فى الدرج ، ومنه الى الردهة ، فوجدت الحاجب مستغرقاً فى نومه ، وكانت آنية القهوة تغلى فوق المرجل الصغير ، والماء ينصب منها على الأرض ، ومددت يدى لأوقظه ، وإذا بى أسمع جرساً يدق فوق رأسه ، فاستيقظ مذعوراً ، ولما رآنى قال :

— المستر فيلبس ! . . . سيدى !

— لقد جئت لأرى إن كانت القهوة التى طلبتها قد أعدت . . .

— كنت أغلى الماء فغلبنى النوم يا سيدى

« ونظر الىّ ، ثم الى الجرس الذى كان لا يزال يهتز فوق رأسه ، وارتسمت الدهشة على ملامحه وقال :

— إذا كنتَ أنت هنا يا سيدى ، فمنذا الذى يدق الجرس إذن ؟

— الجرس ؟ . . أى جرس ؟

— إنه جرس غرفتك يا سيدى

« وعندئذ تملكنى رعب خفى ، فقد أدركت أن أحداً من الناس بالغرفة التى بها المعاهدة مبسوطة على المكتب . فصعدت السلم قفزاً ، وجريت فى الممر ، ولم أجد أحداً بالغرفة ، وكان كل شىء كما تركته ، ماعدا الأوراق الثمينة التى أؤتمنت عليها ، فانها لم تكن على المكتب . أجل كانت الصورة المنسوخة هناك ، ولكن « الأصل » اختفى !

وهنا اعتدل هولمز فى جلسته ، وحك إحدى يديه بالأخرى ، فأدركت أن المسألة قد أثارت اهتمامه ، ثم سأل الشاب :

— وماذا فعلت عندئذ ؟

— لقد أدركت تواً أن اللص قد صعد الدرج من الباب الجانبى ، ولو

أنه اتبع طريقاً أخرى لصادفته

ـــ هل أنت واثق أنه لم يكن طول الوقت مختفياً بالغرفة ، أو بالردهة القليلة الضوء كما قلت ؟

ـــ هذا محال ، فلو كان فأراً لما استطاع أن يختبىء فى الغرفة ولا فى الردهة ، فليس فيهما أى مكان يمكن الاختفاء فيه

ـــ شكراً لك . . . استمر

فاستطرد الشاب قائلا :

ـــ وكان الحاجب حين رأى ما تولانى من فزع قد أدرك أن شيئاً قد حدث ، فتبعنى ، ثم أخذ كلانا يجرى فى الردهة ويهبط السلم المؤدى الى شارع تشارلس ، وكان الباب الذى هناك مقفلا ، ولكنه لم يكن موصداً بمفتاح ، ففتحناه واندفعنا الى الشارع . وأذكر أننا حين خرجنا دقت ساعة الكنيسة ثلاث دقات ، إذ كانت الساعة العاشرة إلا ربعاً

فدون هولمز ذلك قائلا :

ـــ هذه نقطة هامة

ثم قال الشاب :

ـــ وكان الليل حالك الظلام ، وبدأ المطر يتساقط ، ولم يكن أحد من السابلة بشارع تشارلس فى تلك الساعة ، ولكن كانت هناك حركة ناشطة فى طرفه عند هوايتهول كالمعتاد . فسرت مع الحاجب حتى وجدنا أحد الشرطة واقفاً فقلت له :

ـــ لقد ارتكبت سرقة . . . سرقت وثيقة هامة من وزارة الخارجية ، هل مر أحد من هنا ؟

ـــ إنى واقف هنا منذ ربع ساعة يا سيدى ، ولم يمر سوى امرأة عجوز طويلة القامة على كتفيها شال

فصاح الحاجب قائلا :

ـــ تلك زوجتى . . ألم يمر شخص آخر ؟

ـــ كلا . . . لا أحد

فقال لى الحاجب :

— إذن لا بد أن اللص قد سار من الطريق الأخرى

ولكنى لم أقتنع برأيه ، بل زدت ارتياباً فيه لمحاولته إبعادى عن تلك الطريق ، وسألت الشرطى :

— والى أين اتجهت تلك المرأة ؟

— لا أدرى يا سيدى ، لقد رأيتها تسير من هنا ، ولكنى لم أجد داعياً لمراقبتها بعد ذلك ، وكانت تسير بسرعة

— ومتى مرت من هنا ؟

— منذ وقت وجيز يا سيدى

— منذ خمس دقائق ؟

— بل منذ أكثر من ذلك

« وهنا قال لى الحاجب :

— إنك تضيع وقتك سدى يا سيدى ، وكل دقيقة لها قيمتها الآن ، ثق أن زوجتى ليس لها شأن بهذا الموضوع ، وتعال معى الى الطرف الآخر من الشارع . . . وإذا لم تأت ، فانى أذهب وحدى . . .

« وعلى ذلك تركنى ومضى فى تلك الطريق ، ولكنى تبعته بعد لحظة وأدركته ، وسألته أين يسكن ؟ فأجاب : « فى ايفى لين رقم ١٦ بجهة بريكستون ، ولكن لا تتبع أثراً خاطئاً يا مستر فيلبس ، هيا بنا نذهب إلى الطرف الآخر من الشارع ، لعلنا نصل إلى شىء »

« ولم أر ضيراً من اتباع نصيحته ، فسرنا مع الشرطى ، ولكنا وجدنا الشارع كثير الحركة والناس رائحين غادين ، وكل منهم يسرع فى طريقه فراراً من المطر ، ولم يكن هناك متسكع يمكنه أن يخبرنا بمن مر هناك . . .

« ثم عدنا الى المكتب ، وفحصنا السلم والممر دون جدوى . وكانت الردهة المؤدية الى الغرفة مغطاة أرضها بمشمع يبين أثر الخطى ، ففحصناه جيداً ، ولكنا لم نجد آثار أقدام ظاهرة »

فسأله شرلوك هولمز :

— هل كان المطر يسقط طول تلك الليلة ؟

— منذ الساعة السابعة مساء تقريباً

ــ وكيف إذن لم تترك المرأة آثاراً لحذائها الموحل حين جاءت الى الغرفة حوالى الساعة التاسعة ؟

ــ يسرنى أنك سألت هذا السؤال ، فقد خطر لى هذا الخاطر نفسه ، ولـكن الواقع أن الخادمات الموكلات بالتنظيف اعتدن أن يخلعن أحذيتهن فى غرفة الحاجب ، وتلبس كل منهن خفاً بعد ذلك

ــ هذا واضح . إذن لم تكن هناك آثار رغم المطر ؟ . إن سلسلة الحوادث هذه شائقة حقاً ، وماذا فعلت بعد ذلك ؟

ــ لقد فحصنا الغرفة أيضاً ، لم يكن هناك أى باب سرى . والنوافذ مرتفعة عن سطح الأرض نحو ثلاثين قدماً ، وكانت مغلقة من الداخل ، والسقف أبيض اللون عادى ، وأنا أراهن أن اللص الذى سرق المعاهدة قد دخل وخرج عن طريق باب الغرفة

ــ وما رأيك فى الموقد ؟

ــ لا يوجد موقد بالغرفة ، وإنما هناك مدفأة ، وحبل الجرس معلق بسلك الى يمين مكتبى ، فالشخص الذى دقه لابد أن يكون قد وصل الى مكتبى حتى استطاع أن يدقه ، ولـكن لماذا خطر للص أن يدق الجرس ؟ إن هـذا سر لا يمكن أن أهتدى اليه !

ــ حقاً إنه أمر غير معتاد ، وماذا فعلت بعد ذلك ؟ أحسبك قد فحصت الغرفة بحثاً عن أى أثر تركه السارق ، مثل طرف سيجارة أو فردة قفـاز تركها ، أو دبوس شعر الخ ؟

ــ لم يكن ثمة شيء من هذا القبيل

ــ إن رائحة طباق كانت تساعدنا كثيراً فى حل هذه المعضلة

ــ إنى لا أدخن مطلقاً ، ولذا كنت أشم رائحة الطباق لو انها وجدت بالغرفة ، ولـكن لم أجد أية رائحة لطباق ، والشيء الملموس الوحيد هو أن زوجة الحاجب ، واسمها مسز تانجى ، قد غادرت الدار مسرعة . ولم يستطع الحاجب أن يفسر ذلك إلا بأن قال إن وقت عودتها للبيت قد حان ... وقد اتفق رأيي ورأى الشرطى على ان خير مانعمله هو أن نباغت تلك المرأة قبل أن يتاح لها الخلاص من الأوراق ، على فرض انها أخذتها

« وكان نبأ السرقة قد وصل الى اسكتلانديارد ، فجاء المستر فوربس ، البوليس السرى ، مسرعاً ، وتناول المسألة بكثير من النشاط ، وقد استأجرنا عربة ، وبعد نصف ساعة وصلنا الى منزل الحاجب ، وفتحت لنا الباب شابة ، اتضح انها الابنة الكبرى لمسز تانجى ، ولم تكن أمها قد جاءت بعد ، فأدخلتنا فى الغرفة الأمامية لننتظر أوبتها

«وبعد عشر دقائق سمعنا قرعاً على الباب ، فأخطأنا خطأ شديداً إذ لم نفتح الباب بأنفسنا بل تركنا تلك الفتاة تفتحه ، وسمعناها تقول : « أماه ! ها هنا رجلان ينتظرانك » . ثم سمعنا وقع خطاها فى الردهة . وفتح فوربس الباب دفعة واحدة واندفعنا كلانا نحو الغرفة الخلفية أو المطبخ ، ولكن المرأة كانت قد سبقتنا الى هناك ، ولما رأتنا حدقت فينا متعجبة ، وما لبثت حتى عرفتنى ، فصاحت قائلة :

— مستر فيلبس ، من الوزارة !

« فسألها فوربس :

— ومنذا كنت تحسبيننا ، بعد أن هربت منا ؟

« فقالت :

— حسبت انكما من السماسرة ، فقد وقعت فى مشكلة مع أحد التجار

« فاعترض فوربس قائلا :

— هذا لايصلح وقاء لك ، إن لدينا من الأسباب مايدعونا الى أن نعتقد انك قد أخذت وثيقة هامة من وزارة الخارجية ، وانك أسرعت الى هنا للخلاص منها . والآن يجب أن تأتى معنا الى اسكتلانديارد لتفتيشك

« وعبثاً احتجت وقاومت ، ثم عدنا الى بيتها وفتشنا المطبخ أولا ، وخصوصاً الموقد ، عساها تكون قد خبأت الأوراق فى اللحظة التى كانت فيها وحدها ، ولكننا لم نجد أى أثر لها ، ولما وصلت المرأة الى اسكتلانديارد ، فتشتها امرأة هناك ، ومكثت أنتظر على أحر من الجمر ، حتى جاءت تلك الموظفة تقول انها لم تجد الأوراق المنشودة

«وعندئذ اتضح لى حرج موقفى ، فقد كنت قبل هذه اللحظة أبحث دائباً عن المعاهدة ، فكان ذلك يشغلنى عن التفكير فى أمرى ، وكنت وطيد الأمل

فى العثور عليها ، فلم أفكر فى عاقبة ضياعها نهائياً . أما الآن فلم يبق أمامى شىء أعمله ، فاتسع الوقت للتفكير . وهذا صديقى واطسن يشهد بأنى حين كنت تلميذاً بالمدرسة ، كنت عصبياً سريع التأثر ، وتلك طبيعتى التى لا تتغير ، وقد رجع بى الفكر الى خالى وزملائه الوزراء ، وهالنى العار الذى أسببه له ولنفسى ولكل من يتصل بى ، من جراء فقد تلك المعاهدة . صحيح اننى كنت ضحية حادث شاذ ، ولكن حيث تكون المصالح الدبلوماسية ، لا يوجد مجال للتسامح بداعى الحوادث . ولست أدرى ماذا فعلت وقتئذ ، وأحسبنى قد ثارت ثائرتى ، وإنى لأذكر ان جماعة من الموظفين اجتمعوا حولى ، وحاولوا تهدئتى ، وأن واحداً منهم أركبنى عربة وصلت بنا الى محطة ووترلو ، ثم أركبنى القطار المسافر الى ووكنج . ولعله كان يصحبنى الى بيتى ، لولا أن الدكتور فرير ، الذى يسكن على مقربة من بيتى ، كان مسافراً بالقطار نفسه ، فعهد بى اليه ، وحسناً فعل ، فقد أصابتنى نوبة فى المحطة ، حتى إذا وصلت الى البيت ، كنت أشبه بالمجانين

« ويمكنك أن تتصور كيف كانت الحالة هنا ، حين دق الدكتور فرير جرس البيت فأيقظ الجميع من نومهم ، ووجدونى على تلك الحالة . لقد سحق قلب أمى وخطيبتى آنى حين رأتانى كذلك ! وكان الدكتور فرير قد علم بالأمر من ضابط البوليس السرى بالمحطة ، فأخبر أهلى بما سمعه ، وكان ذلك باعثاً على قلقهم ، وقد أدركوا أن المرض الذى دهمنى سيطول أمده ، ولذا أخرجوا جوزيف من هذه الغرفة ، وأعدوها لتكون غرفة لى خلال مرضى . وقد رقدت هنا يا مستر هولمز تسعة أسابيع ، وأنا فاقد الوعى من أثر حمى مخية ، ولولا حنان مس هاريسون ، وعناية الطبيب ، لما استطعت أن أكلمكم الآن . لقد مكثت تعنى بى نهاراً ، وجىء بممرضة لتسهر علىّ ليلا ، لأنى كنت أهلا لعمل أى شىء فى نوبات جنونى . ثم أخذ ذهنى يستعيد صفاءه تدريجاً ، ولكنى لم أستعد ذاكرتى تماما إلا خلال الأيام الثلاثة الأخيرة ، وأحيانا أود لو لم أستعدها . وكان أول شىء فعلته هو انى كتبت الى المستر فوربس ، الذى أصبحت القضية فى يده . وقد زارنى ، وقال لى انه بذل كل ما فى وسعه ،

ولكن لم يجد أى أثر للمعاهدة المفقودة . وقد حقق مع الحاجب وزوجته تحقيقا دقيقا ، دون أن يكشف التحقيق عن شىء يفيد القضية . وعندئذ اتجهت شكوك البوليس الى الشاب جورو الذى مكث بعد مبارحة الموظفين للمكتب ذلك المساء . وهذه الواقعة ، مضافا اليها كونه من أصل فرنسى ، قد أثارا الشبهات ضده . ولكن الحقيقة انى لم أشرع فى نسخ المعاهدة إلا بعد ذهابه ، وقد كان أجداده من الهوجنو (البروتستانت) الذين هاجروا من فرنسا ، ولكنه انجليزى قلبا وقالبا ، مثلى ومثلك . ولم يوجد أى شىء يدينه ، وبذا انتهى الأمر فيما يخصه . والآن ألجأ اليك يامستر هولمز ، على انك أملى الأخير ، فاذا خذلتنى ضاع شرفى ومركزى الى الأبد »

ولما أتم الشاب المريض كلامه ، أسند ظهره الى الوسائد ، وقد أجهده طول الكلام ، وقدمت اليه خطيبته دواء منعشا . وجلس هولمز صامتا ، وقد مال رأسه الى الخلف وأغمض عينيه بشكل يحسبه الغريب دليل الذهول ، ولكنى كنت أعرف انه علامة التفكير العميق عنده . ثم قال أخيراً :

— لقد ذكرت الواقعة بايضاح لايدع مجالا إلا لقليل من الأسئلة . واليك سؤالا شديد الأهمية :

— هل أخبرت أحداً بتلك المهمة التي كان عليك أداؤها ؟

— لم أخبر أحداً

— حتى ولا مس هاريسون مثلا ؟

— كلا ، فانى لم أعد الى ووكنج فيما بين تكليفى تلك المهمة ، والشروع فى أدائها

— ولم يزرك أحد من أهلك فى تلك الفترة ؟

— كلا

— وهل يعرفون مكان مكتبك بالوزارة ؟

— أجل ، لقد زارونى جميعاً فيه

— إذا كنت لم تذكر لأحد شيئاً عن المعاهدة ، فان أسئلتى هذه لا تفيدنا

— لم أذكر لأحد شيئاً عنها

— هل تعلم شيئاً عن الحاجب ؟

ـ لا شيء سوى انه جندى سابق بالجيش

ـ شكراً لك ، أحسبنى سأحصل على تفاصيل أخرى من فوربس ، إن السلطات بارعة فى جمع المعلومات ، وإن تكن لا تعرف كيف تستغلها ... آه ماأجمل الورد !

وقام شرلوك هولمز ليفتح النافذة ، وأمسك بساق وردة وأخذ يتأملها قائلا:

ـ إن الدين هو أكثر الأشياء حاجة الى التأمل والاستنتاج ، ويمكن الانسان أن يجعل منه علماً قائماً بذاته ، ولعل أكبر دليل على رحمة الله ، ماثل فى الأزهار ، فان جميع الأشياء الأخرى ، وجميع احتياجاتنا ، ورغباتنا ، وغذائنا ، كلها ضرورية للحياة . أما هذه الوردة فهى شيء كمالى . ورائحتها ولونها هما زينة للحياة ، وليسا شرطاً لها . وباعث الرحمة وحده هو الذى يهب الشىء الزائد على الحاجة ، ولذا أقول إن لنا أن نؤمل الكثير من الأزهار

وكان فيلبس وخطيبته يرمقان هولمز وهو يتكلم بنظرة دهشة وخيبة أمل، وكان قد استغرق فى الفكر والوردة بين أصابعه ، وبعد لحظة قالت الفتاة :

ـ هل هناك أمل فى حل هذه المعضلة ؟

وكأنما أعاده هذا السؤال الى عالم الواقع فقال :

ـ آه ... المعضلة ، إنى لا أنكر انها معقدة ، ولكنى أعدك أن أبحثها . وأن أطلعك على أية نقطة فيها تلفت النظر

وسأله الشاب :

ـ ألا ترى أية قرينة تساعد على كشف سرها ؟

ـ لقد ذكرت لى سبع قرائن ، ولكن علىّ بالطبع أن أفحصها قبل أن أقدر قيمتها

ـ هل ترتاب فى أحد ؟

ـ إنى أرتاب فى نفسى

ـ ماذا تقول ؟

ـ من حيث التسرع فى الوصول الى نتائج

فقالت الفتاة :

ـ إذن اذهب الى لندن وادرسها بامعان

— هذه نصيحة قيمة يامس هاريسون

وقام وهو يقول :

— أحسب ان هذا هو خير مانفعله ياواطسن ... وأنت يامستر فيلبس ، لاتتعلق بآمال كاذبة ، فان المسألة ليست سهلة

فقال له الشاب :

— سأنتظر عودتك وأنا على أحر من الجمر

— حسناً . سآتى غداً بالقطار الذى جئت به اليوم ، وإن كنت أرجح أن النتيجة ستكون سلبية

فصاح به عميلنا :

— أشكر لك وعدك بالعودة الىّ ، فان مما يبعث فىّ الحياة ، أن أعلم أن هناك على الأقل جهداً يبذل ... آه لقد نسيت أن أقول لك انى تسلمت خطاباً من اللورد هولد هيرست

— ماذا قال فيه ؟

— إنه خطاب جاف ، وإن لم يكن قاسى اللهجة ، وأحسب ان مرضى حال دون اتخاذه القسوة معى فى خطـابه ... لقد ردد القول بأن الأمر ذو أهمية بالغـة ، وأنه لن تتخذ تدابير بشأن مستقبلى – أى فصلى من وظيفتى – حتى أستعيد صحتى ، وانه لا تزال الفرصة سانحة أمامى لـكى أصلح ماحدث

فقال هولمز :

— هذا منه دليل العقل والانصاف ، والآن هيا بنا ياواطسن ، لأن أمامنا عمل يوم كامل فى المدينة

وقد أركبنا المستر جوزيف هاريسون عربته الى المحطة ، ثم ركبت مع هولمز قطار بورتسموث ، وكان طول الطريق مستغرقاً فى الفكر ، ولم يكد ينبس ببنت شفة الى أن وصلنا الى كلافام ، فقال :

— إن من الممتع أن يأتى الانسان الى لندن بأحد هذه القطارات العالية، التى تسمح له بأن ينظر الى البيوت هكذا من عل !

وحسبته يمزح ، لأن المنظر فى الواقع كان يبعث على الـكآبة ، ثم قال :

— انظر الى تلك البيوت المنعزلة كأنها جزر وسط بحر ..

فقلت له :

ـ إنها مدارس داخلية

ـ انها منائر يابنى ! منائر المستقبل ، انها أوعية تحوى مئات من البذور التى سوف تنبت أمة المستقبل ، أظن ان مستر فيلبس لا يشرب الخمر ؟

ـ أحسبه لا يشربها

ـ وأنا أيضاً أعتقد ذلك ، ولكنا مضطرون أن نقدر كل فرض ... لا شك ان ذلك الشاب المسكين فى ورطة شديدة ، ولست أدرى ، أيمكن اخراجه منها ؟ ما رأيك فى مس هاريسون ؟

ـ أحسبها فتاة متينة الخلق

ـ وأنا أعتقد انها فتاة طيبة ، وعسى أن لا أكون مخطئاً . وهى وأخوها ولدا صاحب مصنع حديد فى جهة ما بطريق نورثمبرلاند ؛ وقد خطبها فيلبس خلال سفره فى الشتاء الماضى . ثم جاءت الى بيته ليقدمها الى أهله ، ورافقها أخوها ، ثم وقع ذلك الحادث ، فبقيت الى جانب حبيبها لتمريضه ، ولما وجد أخوها نفسه مستريحاً ، بقى هو أيضاً ... وهاأنت ترى انى جمعت بعض المعلومات ... واليوم يجب أن ينقضى فى جمع معلومات أخرى

فقلت له :

ـ ولكن عيادتى ...

ـ طبعاً ، إذا كانت حالات المرض أكثر تسلية لك من الحالات التى أباشرها ...

ـ لقد أردت أن أقول لك انه يمكننى أن أترك العيادة يوما أو يومين ، وخصوصا أن الوقت الحالى وقت كساد

فارتاح الى ذلك ، وعاد اليه بشره ، وقال :

ـ إذن نبحث هذه المسألة معاً ، وأحسب انه يجدر بنا أن نبدأ بزيارة فوربس ... ولعله يستطيع أن يمدنا بجميع التفصيلات التي تلزمنا ، وبعدئذ نعرف من أية زاوية نعالج الموضوع

ـ لقد قلت ان لديك قرينة

ـ لدىَّ عدة قرائن ، ولكنا سنعرف قيمتها بمواصلة جمع المعلومات . إن

أصعب الجرائم كشفاً هي تلك التي لا يكون لها هدف . غير أن الجريمة التي نحن بصددها لا تخلو من هدف ، ومنذا الذي يفيد منها ؟ هناك السفير الفرنسي (١) .. وهناك السفير الروسي .. وهناك من قد يبيع أحدهما المعاهدة .. وهناك اللورد هيرست نفسه !

— اللورد هيرست ؟

— أجل ، فقد يجد أحد الساسة نفسه في موقف يجعله لا يأسف على اتلاف مثل هذه الوثيقة !

— ولكن اللورد هيرست ذو ماض نزيه ...

— هذا مجرد فرض لا يصح أن نغفله ... على أننا سنقابل هذا اللورد اليوم ، وسنرى إن كان يمكنه أن يدلنا على شيء . وفي الوقت نفسه ، بدأت تحرياتي ، فقد أرسلت من محطة ووكنج ، برقية الى كل جريدة مسائية في لندن ، وسيظهر هذا الاعلان فيها ..

وأعطاني رقعة ورق منزوعة من مفكرته ، وقد كتب عليها بالقلم الرصاص ما يأتي :

« جائزة عشرة جنيهات لمن يدلي برقم العربة التي أوصلت راكباً الى باب وزارة الخارجية بشارع تشارلس ، أو على مقربة منها ، في الساعة العاشرة إلا ربعاً من مساء ٢٣ مايو الماضي . خابر رقم ٢٢١ ب شارع بيكر »

— هل أنت واثق أن اللص جاء راكباً عربة ؟

— وإذا لم يأت في عربة ، فلا ضرر البتة ، ولكن إذا كان مستر فيلبس مصيباً في قوله انه لا يوجد أي مخبأ في غرفته ، أو في الردهات ، فلا بد أن الشخص المنشود قد جاء من الخارج . وإذا كان قد قدم من الخارج في تلك الليلة المطيرة ، ومع ذلك لم يترك حذاؤه أثراً من الوحل على المشمع . فان من المحتمل جداً أن يكون قد جاء في عربة ... أجل يمكننا أن نستنتج ذلك !

---

(١) كان ذلك في القرن التاسع عشر ، حين كانت انجلترا على خلاف مع فرنسا في السياسة الخارجية ، وقبل معاهدة سنة ١٩٠٤ المعروفة ، التي كانت بداية الوفاق بينهما « المترجم »

ـــ إن هذا فرض معقول !

ـــ هذه إحدى الدلائل التى أشرت اليها ، وقد تقودنا الى شىء ذى بال .
ثم هناك الجرس طبعاً ، وهو أهم ظاهرة فى الموضوع ... لماذا دق الجرس ؟
هل دقه اللص بدافع التحدى ؟ أو دقه أحد كان مع اللص منعاً للجريمة ؟ أو كان الأمر مجرد مصادفة ؟ أو كان ...

وهنا أمسك هولمز عن الكلام وراح فى تفكير عميق ، فأدركت انه قد خطر له خاطر آخر

كانت الساعة الثالثة والدقيقة العشرين ، حين وصلنا الى لندن ، فتناولنا غداء سريعاً بالمقصف ، ثم أسرعنا صوب اسكتلانديارد . وكان هولمز قد أبرق الى فوربس ، فوجدناه ينتظر مجيئنا

وهو رجل صغير القد ، عابس الوجه ، شبيه بالثعالب . وقد قابلنا بجفاء ، وخصوصاً حين علم بالمهمة التى جئنا من أجلها ، وقال لصاحبي :

ـــ لقد سمعت عن طريقتك يامستر هولمز ... انك تستغل المعلومات التى يدلى بها رجال البوليس اليك ، ثم تجتهد فى انهاء القضايا دونهم لكى تسوىء سمعتهم

فقال له هولمز :

ـــ بل العكس من ذلك هو الصحيح ، فمن بين الثلاث والخمسين قضية الأخيرة التى اشتركت فيها ، لم يظهر اسمى إلا فى أربع منها ، ونسب الفضل فى التسع والأربعين الباقية الى رجال البوليس . ولست ألومك فى عدم معرفتك بذلك ، لأنك شاب قليل التجربة ، ولكن إذا أردت المضى فى وظيفتك الجديدة ، فيحسن بك أن تتعاون معى لا أن تحاربنى

وعندئذ تغير مسلكه نحونا ، وقال بلهجة أقل جفاء من قبل :

ـــ يسرنى أن أذكر لك ما أعرفه عن هذه القضية ، فانى حتى الآن لم أتقدم كثيراً فى سبيل حلها

ـــ ما هى التدابير التى اتخذتها ؟

ـــ لقد راقبنا الحاجب ، وعلمنا أنه حين انتهت مدة خدمته بفرقة الحراس ، خرج بشهادة طيبة ، وليس لدينا شىء ضده ، أما زوجته فهى شريرة ، وأحسبها

تعلم عن هذا الموضوع أكثر مما تدعى

— هل راقبتها ؟

— لقد كلفنا نساءنا أن يراقبنها ، وعلمنا انهـا تشرب الخمر ، وحاولت احدى مبعوثاتنا أن تستل منها أسرارها خلال سكرها ، ولكنها لم تفش لها شيئاً

— لقد فهمت أن بعض السماسرة كانوا يزورون بيتها !

— أجل ، ولكنها دفعت لهم جميع المبالغ التى كانت لهم

— ومن أين جاءها المال اللازم لذلك !

— من المكافأة التى استحقها زوجها على مدة خدمته ؛ وفيما عدا ذلك ، لم يبد على تلك الأسرة الصغيرة غنى مفاجىء

— وكيف فسرت مجيئها الى مكتب مستر فيلبس حين دق الجرس ليطلب قهوة ؟

— لقد قالت إن زوجها كان فى تلك الساعة متعبا ، فحلت محله فى الرد على الجرس

— هذا يتفق تماماً مع وجوده نائما بعد ذلك بقليل . وهو جالس على كرسيه . . . ليس من شبهة ضد المرأة وزوجها سوى سوء أخلاقها . . . ألم تسألها لماذا أسرعت فى مغادرة الوزارة فى تلك الليلة ؟ إن إسراعها فى المشى قد لفت اليها نظر الشرطى

— لقد تأخرت عن العادة ، ولذا أرادت الاسراع فى العودة إلى بيتها

— هل قلت لها إنك والمستر فيلبس قد قصدتما إلى بيتها بعد عشرين دقيقة من مغادرتها دار الوزارة ، ومع ذلك وصلتما قبلها ؟

— لقد فسرت ذلك بأنها ركبت عربة عمومية ، فى حين ركبنا عربة خاصة

— وهل بينت لك لماذا هرعت إلى المطبخ حين دخلت بيتها ؟

— لأنها تحتفظ بنقودها هناك ، وقد حسبت أننا السماسرة ، وأننا جئنا نطالبها بدفع ماعليها

— إن لديها جواباً عن كل سؤال . . . هل سألتها عما إن كانت ، عند خروجها من دار الوزارة ، قد صادفت أحداً ، أو رأت شخصاً يتسكع فى شارع تشارلس ؟

ـــ لقد قالت إنها لم تر أحداً غير الشرطى
ـــ يبدو لى أنك استجوبتها استجواباً شاملا ... وماذا فعلت غير ذلك ؟
ـــ لقد راقبنا الكاتب جورو طول هذه الأسابيع التسعة ، دون أن نجد مسلكه شائبة
ـــ وهل من شىء آخر ؟
ـــ ليس لدينا أى دليل نتتبعه
ـــ ألم تكوّن لنفسك رأياً بشأن دق الجرس حين كان مستر فيلبس بغرفة الحاجب ؟
ـــ إنى أقر بأنى غلبت على أمرى ، والحق أن منتهى الجرأة أن يدخل اللص ، ويسرق المعاهدة ... ومع ذلك يدق الجرس !
ـــ حقاً إنه لأمر عجيب ، شكراً جزيلا للمعلومات التي أخبرتنى بها ، وإذا وجدت سبيلا الى تسليم اللص اليك ، فانى سأخبرك ، هيا بنا يا واطسن ...
فقلت له حين خرجنا من مكتب البوليس السرى :
ـــ إلى أين ؟
ـــ سنذهب الآن لمقابلة اللورد هولد هيرست ، الوزير الحالى ، ورئيس الوزراء فى المستقبل
وكان من حسن حظنا أن وجدناه لايزال فى مكتبه بدوننج ستريت ، ولما أرسل هولمز بطاقته ، أدخلنا عنده تواً . وقد استقبلنا ذلك الرجل السياسى بالأدب المأثور عنه ، ودعانا إلى الجلوس على كرسيين فاخرين على جانبي المدفأة . ووقف على السجادة أمامنا فارع الطول ، حاد الملامح ، وعلى محياه دلائل التفكير ، ثم قال :
ـــ إن اسمك معروف لى يا مستر هولمز ، ولست أدعى الجهل بالغرض من زيارتك هذه ، فانه لم يقع فى هذه الوزارة سوى حادث واحد يستحق أن يسترعى اهتمامك ... والآن خبرنى بمن تنشد صالحه بهذه الزيارة ؟
فأجاب هولمز :
ـــ جئت لصالح مستر برسى فيلبس
ـــ آه .. ابن أختي السىء الحظ ! إنك تدرك طبعاً ان قرابته لى تحول دون

حمايتى إياه بأى شكل من الأشكال ، وأخشى أن يكون للحادث الذى وقع أثر سىء فى مستقبله

— ولكن إذا وجدت الوثيقة ؟

— فى هذه الحالة يختلف الأمر

— عندى سؤال أو سؤالان أود توجيههما يا لورد هولد هيرست

— يسرنى أن أدلى اليك بما عندى من معلومات فى هذا الصدد

— هل أصدرت أمرك بنسخ المعاهدة وأنت فى هذه الغرفة ؟

— أجل

— إذن كان من العسير أن يتسمع أحد ؟

— هذا محال

— هل ذكرت قبلا لأى إنسان ، أنك تعتزم تكليف المستر فيلبس نسخ المعاهدة ؟

— لم أذكر ذلك لأحد

— هل أنت واثق من ذلك ؟

— كل الثقة

— حسناً ، ما دمت تؤكد ذلك ، ومستر فيلبس أيضاً لم يذكر النبأ لأحد ، ولم يعلم إنسان ما شيئاً عن الموضوع ، فاذن كان وجود السارق فى غرفة مستر فيلبس مجرد مصادفة . . . لقد لاحت له الفرصة فانتهزها

فابتسم الوزير وقال لهولمز :

— لقد بعدت بى عن مجالى . . .

فسكت هولمز لحظة يفكر ، ثم قال له :

— هناك نقطة هامة أخرى ، أريد أن أبحثها معك : لقد علمت انك خشيت حدوث نتائج خطيرة من ذيوع تفاصيل تلك المعاهدة ؟

فلاح ظل من الكآبة على محياه الصادق التعبير وقال :

— نتائج خطيرة حقا !

— وهل تحققت هذه النتائج ؟

— لم تحدث بعد

ــ إذا كانت المعاهدة قد وصلت الى أيدى السفارة الفرنسية أو الروسية ، أفكنت تعلم بذلك ؟

ــ أجل

ــ الآن ، وقد انقضت عشرة أسابيع تقريبا على اختفاء المعاهدة دون أن تسمع شيئا ، أفيحق لى أن أستنتج من ذلك انهـا لم تصل الى يد إحدى السفارتين بعد ؟

فهز اللورد هولد هيرست كتفه وقال :

ــ ما أحسب ان اللص قد سرق المعاهدة لـكى يضعها فى إطار ، ويعلقها على الحائط فى منزله . .

ــ ربما كان ينتظر ثمنا أعلى لها

ــ إذا انتظر مدة أخرى فلن يقبض أى ثمن لها ، لأنها لن تكون سراً من الأسرار ، بعد مضى بضعة أشهر

فقال هولمز :

ــ هذا أمر هام للغاية ... بالطبع يمكن أن نفترض أن اللص قد أصيب بمرض مفاجىء

فرمقه الوزير بنظرة سريعة وقال :

ــ حمى مخية مثلا ؟...

ــ إنى لم أقل ذلك ، والآن يالورد هولد هيرست ، لقد استنفدنا الـكثير من وقتك الثمين ، فاسمح لنا بالانصراف

فانحنى لنا تحية وهو يودعنا عند الباب ، وقال :

ــ أرجو لك كل نجاح مهما يكن المجرم

ولما خرجنا الى هويتهول قال لى هولمز :

ــ إنه رجل لطيف ، ولـكنه يلقى نصباً فى سبيل الابقاء على مركزه . انه ليس بذى ثروة مع كثرة المطالب عليه . ولعلك لحظت ان حذاءه قد ركب له نعل جديد ؟ والآن ياواطسن ، لست أحول بينك وبين عملك فى العيادة ، ولن أفعل شيئاً اليوم ، إلا إذا جاءنى جواب على الاعلان الذى نشرته بشأن العربة . ولـكنى أكون شاكراً لك إذا ذهبت معى غداً الى ووكنج ، بالقطار نفسه الذى سافرنا به اليوم

وقد قابلته فى صباح اليوم التالى طبقاً لهذا الوعد ، وسافرنا معاً الى ووكنج، ولم يكن قد تسلم جواباً عن الاعلان الذى نشره بالصحف ، ولم يكن قد ألقى أى ضوء جديد على المسألة ، وكان - إذا شاء - يجعل ملامحه لا تنم عن شىء وكأنها ملامح أحد الهنود الحمر ، فلم أتبين من مظهره رضا أو استياء من موقفه فى القضية ، وكان حديثه معى يدور حول نظام المقاييس الذى ابتدعه برتيلون، وقد أبدى لى إعجابه بهذا العالم الفرنسى

وقد وجدنا عميلنا لا يزال تحت رعاية ممرضته المخلصة ، وقد تحسنت صحته عن ذى قبل ، وقام من مقعده على الأريكة وحيانا مرحباً ، ثم سألنا بشغف :

— هل من نبأ جديد ؟

فقال له هولمز :

— آسف لأن النتيجة سلبية ... لقد قابلت فوربس وقابلت خالك أيضاً ، وأنا الآن بصدد الاستعلام عن بعض النقط

— إذن لم تيأس ؟

— كلا ، لم أيأس مطلقاً

فقالت مس هاريسون :

— باركك الله إذ قلت ذلك ! يجب أن نحتفظ بالصبر والشجاعة حتى تنكشف الحقيقة

ثم قال مستر فيلبس ، بعد أن عاد الى الجلوس :

— إن عندنا لك من الأنباء أكثر مما عندك لنا

— لقد أملت أن تخبرانى بشىء

— أجل لقد حدثت مغامرة فى الليلة الماضية ، وكادت تنتهى الى نتيجة خطيرة !

وبان على ملامحه الجد ، ونمت عيناه عن الخوف ، واستطرد يقول :

— لقد بدأت أشعر بأنى المقصود من مؤامرة شنيعة تحاك حولى ، يراد منها اقتناص حياتى لا شرفى وحده

فصاح هولمز :

— آه . .

— إن من الصعب تصديق ذلك ، لأنه ليس لى عدو فى هذا العالم ، ولكن ماحدث الليلة الماضية قد دلنى على ذلك

— أرجو منك أن تخبرنا بما حدث

فأخذ الشاب يقص علينا الحادث قائلا :

— كانت الليلة الماضية أول ليلة نمتها وحدى دون وجود ممرضة فى الحجرة ، فقد تحسنت صحتى لدرجة استغنيت معها عن ممرضة ، وتركت مصباحاً ضعيف الضوء موقداً طول الليل ، وعند الثانية صباحاً ، كنت نائماً نوماً خفيفاً ، وإذا بى أستيقظ على صوت ضعيف يشبه صوت الفأر حين يقرض الخشب ، فمكثت برهة أتسمع وأنا معتقد أنه ناتج فعلا عن فأر ، ولكن الصوت ارتفع عن ذى قبل ، ثم جاء من ناحية النافذة صوت معدنى حاد ، وعندئذ جلست فى فراشى مندهشاً ، وقد أدركت حقيقة الصوتين ، فأما أولهما فكان صوت أداة تضغط بين ثنايا النافذة ، وأما الثانى فكان صوت تلك الأداة وهى تسحب !

« ثم ساد السكون زهاء عشر دقائق ، وكأن الشخص يريد أن يستوثق من ان ذلك الصوت لم يوقظنى من النوم ، ثم سمعت صوت النافذة تفتح ببطء ، وعندئذ لم أستطع صبراً ، وخصوصاً أن أعصابى لم تعد كما كانت ، فقفزت الى النافذة ، وفتحت ضلفتيها دفعة واحدة ، وعندئذ أبصرت رجلا واقفاً عندها ، ولكنى لم أتبينه لأنه فر بسرعة البرق . وكان ملتفاً بعباءة يغطى طرفها الجزء الأدنى من وجهه ، ولكنى واثق من انه كان يحمل فى يده سلاحاً ، ويخيل الىّ أنه كان سكينا ، فقد رأيتها تلمع حين استدار ليجرى

فقال هولمز :

— هذا شائق جداً . وماذا فعلت عندئذ ؟

فاستطرد المستر فيلبس يقول :

— لو كانت بى قوة لقفزت من النافذة وجريت وراءه ، ولكنى قنعت بأن دققت الجرس ، وأيقظت من بالبيت ، وانقضت برهة من الوقت لأن الجرس يدق فى المطبخ ، وجميع الخدم ينامون فى الطابق الأعلى ، وعلى ذلك صحت بأعلى صوتى ، فجاء جوزيف من فوق وأيقظ الآخرين ، وقد وجد هو والسائس آثار أقدام فى بستان الأزهار خارج النافذة ، ولكن الجو كان جافا جداً فى

المدة الأخيرة ، فرأينا ان من العبث تتبع تلك الآثار فوق الأعشاب . ولكن هناك مكانا فوق السياج الخشبي المحيط بالحديقة ، وقيل لى انه إذا كان أحد قد تسلقه فلا بد أن تكون قدماه قد تركت آثاراً هناك ، ولكنى لم أقل شيئا للبوليس المحلى حتى الآن ، فى انتظار مجيئك ومعرفة رأيك أولا »

وكان لهذه الحكاية أثر بالغ فى نفس شرلوك هولمز ، فقد قام من كرسيه ، وراح يقطع الغرفة ذهابا وجيئة فى تأثر ظاهر ، ثم استطرد فيلبس قائلا :

— إن المصائب لا تأتى فرادى

وكان يبتسم وهو يقول ذلك ، وإن كان من الواضح أن هذا الحادث الجديد قد هزه هزاً

فقال له هولمز :

— لقد نلت نصيبك منها ... أيمكنك أن تمشى معى الآن حول المنزل ؟

— أجل ... فانى أحب أن أمشى قليلا فى الشمس ، وسيأتى جوزيف معنا

وهنا قالت مس هاريسون :

— وأنا أيضا

ولكن هولمز هز رأسه قائلا :

— كلا بل أرجو منك أن تبقى هنا ، وتجلسى حيث أنت تماما

فعادت الفتاة الى مقعدها مستاءة ، ولكن أخاها صحبنا ، وسرنا نحن الأربعة حتى وصلنا الى خارج نافذة الغرفة الخاصة بمستر فيلبس ، وكانت ثمة آثار أقدام على أرض بستان الأزهار كما قال ، ولكنها كانت غامضة مطموسة ، فانحنى هولمز فوقها ، ثم قال :

— ما أحسب ان فى الامكان الاستفادة من هذه الآثار ... هيا بنا نطف حول الدار ، لنرى لماذا اختار اللص هذه الغرفة بالذات ، لقد كنت أحسبه يؤثر تلك النوافذ الكبيرة التى لغرفة الجلوس وغرفة الطعام

فاعترض مستر جوزيف هاريسون قائلا :

— إن تلك النوافذ ترى من الطريق العام

فقال هولمز :

— آه ، صدقت ... وها هنا باب كان يمكن اللص أن ينفذ منه إذا أراد ، أى باب هذا ؟

فرد جوزيف هاريسون قائلا :

ــ إنه باب جانبي لدخول الباعة وهو بالطبع يوصد بالليل

والتفت هولمز الى فيلبس وسأله :

ــ هل حدث لك حادث مشابه من قبل ؟

ــ كلا . . . مطلقاً

ــ هل تحتفظ فى البيت بآنية نفيسة ، أو بأى شىء ذى قيمة يجذب اللصوص ؟

ــ كلا ، ليس فى البيت شىء ذو قيمة

ومضى هولمز حول البيت ويداه فى جيبيه ، وقد بدت عليه قلة المبالاة ، ثم قال بغتة لجوزيف هاريسون :

ــ لقد وجدت نقطة على السور تسلقها اللص . . .

فقادنا ذلك الشاب الى نقطة فوق السور ، وقد تعلقت بها قطعة صغيرة من الخشب ، فجذبها هولمز وفحصها ، ثم قال :

ــ أتعتقد أن هذه القطعة الصغيرة تدلت من السور الخشبى ليلة أمس فقط ؟ إنها تبدو قديمة ، أليس كذلك ؟

فقال هاريسون :

ــ ربما . . .

ــ لا توجد هنا علامة تدل على أن أحداً قفز فوق السور الى الداخل . . . كلا . . . أظن أن بحثنا هنا لا يفيد ، فلنعد الى غرفة النوم لنتباحث معاً فى الأمر

وكان برسى فيلبس يمشى فى بطء متكئاً على ذراع شقيق خطيبته ، فسار هولمز مسرعاً معى حتى سبقناهما ، ووصلنا الى نافذة غرفة النوم المفتوحة قبل وصولهما ، فقال هولمز لمس هاريسون بلهجة الجد :

ــ يا مس هاريسون : يجب أن تمكثى حيث أنت طول اليوم ، ولا تتركى مكانك هذا بأى حال من الأحوال . . . إن لذلك أهمية قصوى . . .

فقالت الفتاة مندهشة :

ــ كما تريد يا مستر هولمز

— وحين تأوين إلى فراشك أوصدى باب هذه الغرفة من الخارج ، واحتفظى بمفتاحها معك . . . عدينى بأن تفعلى ذلك

— ولكن برسى ؟

— إنه سيذهب الى لندن معنا

— وهل أبقى أنا هنا ؟

— أجل ... إن هذا لصالحه ... أسرعى ... عدينى بذلك !

فأومأت برأسها موافقة فى اللحظة التى أدركنا فيها الآخران ، وقال لها أخوها :

— لماذا تمكثين هنا مكتئبة يا آنى ؟ هيا اخرجى واستمتعى بالشمس

— إن بى صداعاً خفيفاً ، وهذه الغرفة تلائمنى ، لأنها رطبة الجو هادئة

ثم قال برسى فيلبس :

— ماذا تعتزم الآن يا مستر هولمز ؟

— إننا إذ نبحث فى الوقائع الصغيرة ، لا ينبغى لنا أن نغفل المعلومات الكبرى التى نحتاج اليها ، ومما يفيدنا كثيراً أن تذهب معنا الى لندن

— الآن ؟

— أجل . . . إذا أمكنك . . . بعد ساعة مثلا ؟

— إنى أشعر الآن بالقدرة على هذه الرحلة الصغيرة ، إذا كانت فيها فائدة حقاً

— أكبر فائدة !

— لعلك تريد منى أن أبيت الليلة فى لندن ؟

— كنت موشكا أن أعرض عليك ذلك

— حسناً . . . وإذا كرر صديق الليل زيارته لى فسيجد الغرفة خاوية وقد فر الطائر المنشود ! إننا جميعاً بين يديك يا مستر هولمز ، وما عليك إلا أن تنبئنا بما يجب علينا عمله ، وأحسبك تؤثر أن يأتى جوزيف معى لكى يعنى بى ؟

— كلا ، لا ضرورة لذلك ، فان صديقى هذا طبيب ، فهو الذى سيعنى بك ، وسنتناول غداءنا هنا إذا سمحت ، ثم نذهب ثلاثتنا إلى لندن

وقد تم ما أراده شرلوك هولمز ، واعتذرت مس هاريسون من عدم مغادرتها الغرفة طبقاً لتعليمات هولمز . ولم أدرك غرض صديقى من ذلك ، اللهم إلا إذا كان قد أراد إبعاد الفتاة عن فيلبس . . وقد فرح هذا باستعادة صحته فتناول طعامه معنا فى غرفة الأكل . على أن هولمز كان يدخر لنا مفاجأة أخرى ، فانه بعد أن مضى معى ومع فيلبس الى المحطة ، وركبنا القطار ، صارحنا فى هدوء بأنه لا ينوى الابتعاد عن ووكنج ! وقال مفسراً لذلك :

ـــ هناك نقطة أو نقطتان تتطلبان البحث هنا ، قبل أن أذهب إلى لندن . وغيابك عن ووكنج يا مستر فيلبس سيساعدنى كثيراً ، وأنت يا واطسن أرجو منك ، حين تصل الى لندن ، أن تذهب تواً مع صديقنا هذا الى مسكنى فى شارع بيكر ، وأن تمكث معه حتى أوافيكما . ومن حسن الحظ أنكما زميلان قديمان فى المدرسة . فلديكما الكثير الذى تتحدثان عنه . ويمكن مستر فيلبس أن ينام فى الغرفة الزائدة ، وسأجىء اليكما صباح غد ، وقت تناول الفطور ، لأن هناك قطاراً يمكننى أن أركبه الى محطة ووترلو فى الساعة الثامنة

فقال فيلبس :

ـــ ولكن هل نسيت أنك تريد تحقيق بعض النقط فى لندن ؟

ـــ يمكننا أن نقوم بذلك غداً ، وأحسب أن لدىّ هنا عملا عاجلا أنجزه

فقال فيلبس حين بدأ القطار يتحرك :

ـــ أرجو أن تخبرهم فى برايرى أنى سأعود مساء غد

ـــ لا أظن أنى عائد الى برايرى

ولوح لنا بيده منشرحاً وهو يغادر المحطة . وقد تحدثت مع فيلبس أثناء السفر عما يمكن أن يكون قصد هولمز من تخلفه ، ولكننا لم نتبين غرضه ، وقال لى فيلبس :

ـــ أحسبه يريد البحث عن دليل بشأن الشروع فى السرقة ليلة أمس ، هذا إذا كان ذلك الشخص لصاً ، وأنا لا أعتقد أنه كان لصاً عادياً ، أراد السطو على المنزل

ـــ وماذا تحسبه إذن ؟

— قد ترتاب فى كلامى ، وتظنه نتيجة اضطراب أعصابى ، ولكننى أعتقد أنى صرت محور مؤامرة سياسية بعيدة المدى ، وأن الغرض منها قتلى . قد يبدو هذا غروراً ، ولكن انظر الى الوقائع : لماذا يحاول أحد اللصوص أن يقتحم نافذة غرفة نوم حيث لا يوجد شىء يستحق أن يسرقه ، ولماذا يجىء وفى يده سكين طويل ؟

— وهل أنت واثق أنها لم تكن عتلة مما يستخدمه اللصوص فى السطو على المنازل ؟

— كلا . بل كانت سكيناً . وقد رأيت بريق حدها واضحاً

— ولكن خبرنى بالله لماذا يريد أحد الناس أن يقتلك ؟

— هذه هى المسألة التي تحيرنى !

— حسناً ، إذا كان هولمز أيضاً يرى هذا الرأى ، ففى ذلك تفسير لتخلفه عن السفر الى لندن . . . أليس كذلك ؟ فاذا كانت نظريتك هذه صحيحة ، فانه قد يقبض على الشخص الذى هددك فى الليلة الماضية ، وبذا قد يصل الى سارق المعاهدة . حقاً ان من الصعب أن نعتقد أن لك عدوين : أحدهما سرق المعاهدة من فوق مكتبك ، والآخر شرع يهدد حياتك !

— ولكن مستر هولمز قال لنا إنه ليس عائداً إلى بريابرى !

— إنى أعرفه من زمن ، وأعرف أنه لايفعل شيئاً إلا إذا كان له هدف من ورائه

وبهذا تركنا الموضوع ، وأخذنا نتكلم فى شؤون أخرى

وقد لقيت فى يومنا هذا نصبا ، فان فيلبس كان لا يزال ضعيفاً اثر مرضه الطويل ، وأعصابه تالفة من جراء المأساة التى حلت به ، فصار شديد القلق . وعبثاً حاولت أن أشغله بالحديث ، عن أفغانستان والهند والأحوال الاجتماعية ، فقد كان لا يلبث أن يعود الى الحديث عن المعاهدة المفقودة ، والتساؤل عما يمكن أن يعمله هولمز ، وعن الخطوات التي قد يتخذها اللورد هولد هيرست ، حتى إذا حل المساء كان لا يُحتمل وسألنى قائلا :

— هل أنت واثق من مقدرة مستر هولمز ؟

— لقد رأيته يحل مشاكل معقدة

كهذه !
ــ ولكنى ما أحسبه قد صادفته مشكلة معقدة كهذه !
ــ بل رأيته يكشف خافية مسائل لم تتوافر له فيها مثل الأدلة والقرائن التى توافرت له فى مسألتك
ــ ولكنها لم تكن تتناول مصالح خطيرة مثل مسألتي هذه
ــ لا أدرى ، ولكن الذى أدريه انه اشتغل بقضايا تتناول مصالح ثلاث أسر حاكمة فى أوروبا
ــ إنك تعرفه حق المعرفة ياواطسن ، أما أنا فانى أراه شخصاً غامضاً ... أتراه يأمل النجاح فى مسألتي ؟
ــ إنه لم يقل شيئاً
ــ هذه دلالة سيئة
ــ بل على العكس ، فقد لحظت انه إذا رأى نفسه بعيداً عن الأثر الذى يتبعه صارحنى بذلك . أما إذا كان قد شم رائحة وسار فى أثرها ، فانه يعمد الى الصمت . والآن ياصاحبي اننا لا نحل مشاكلنا بأن نزعج أنفسنا بشأنها ، ولذا أرجوك أن تأوى الى فراشك ، لتستعد لما قد يصادفنا غداً

واستطعت أخيراً أن أقنع صديقى باتباع نصيحتي ، وإن كنت موقناً أن هياج أعصابه لن يدع له سبيلا الى النوم فى تلك الليلة . وكأنما أصابتنى منه عدوى ، فقد أرقت أنا أيضاً ومكثت شطراً من الليل أفكر فى هذه القضية العجيبة ، وأسائل نفسى : لماذا بقى هولمز فى ووكنج ؟ ولماذا طلب الى مس هاريسون أن تبقى فى غرفة المريض طول النهار ؟ ولماذا حرص على أن يخفى عن آل بيت بريابرى عزمه على البقاء قريباً من هناك ؟ لقد أجهدت ذهنى فى التفكير فى كل ذلك حتى غلبنى النوم أخيراً



كانت الساعة السابعة صباحاً حين استيقظت ، فقصدت تواً الى الغرفة التى بها برسى فيلبس ، فوجدته شاحب اللون بادى الاعياء ، من أثر الأرق ، ولما رآنى سألنى لأول وهلة عما إذا كان هولمز قد عاد ، فقلت له :
ــ سيجىء فى الموعد الذى حدده ، ولن يتقدم أو يتأخر عنه دقيقة واحدة
وقد أصبت ، فلم تمض دقائق بعـد الثامنة ، حتى جاءت عربة مسرعة ،

ووقفت أمام الباب ، وخرج منها هولمز ، وكنا واقفين بالنافذة ، فرأينا وجهه شاحباً بادى الجد ، وقد ربط إحدى يديه . ودخل البيت ، ولكن مضت برهة حتى صعد الدرج . فقال فيلبس :

— يبدو كرجل غلب على أمره

وخيل الىّ انه على صواب ، فقلت له :

— على أى حال قد يوجد مفتاح المسألة هنا فى لندن

فتأوه فيلبس وقال :

— لقد عقدت آمالا كبيرة على صاحبك !... ولكن يده لم تكن مربوطة هكذا أمس ؟ ترى ماذا حدث ؟

ولما دخل هولمز الغرفة قلت له :

— ماذا بك ؟ هل جرحت ؟

فحيانا تحية الصباح وقال :

— إنه خدش بسيط نشأ من قلة براعتى ...

ثم التفت الى فيلبس وقال :

— إن مسألتك يامستر فيلبس من أكثر المسائل التى صادفتنى تعقيداً

— لقد كنت أخشى أن تعجز عن حلها ...

— الحق انها كانت تجربة شائقة

فقلت له :

— إن الرباط الذى بيدك يدل على مجازفة ، أفلا تخبرنا بما حدث ؟

— بعد تناول طعام الفطور يا واطسن .. تذكر انى استنشقت جو أقليم « سرى » مسافة ثلاثين ميلا فى هذا الصباح ! ألم يأت رد على الاعلان الخاص بالعربة ؟ لا بأس .. اننا لا يجدر بنا أن نتوقع النجاح فى كل خطوة

وأعدت المائدة ، وجاءت مسز هدسن بالشاى والقهوة ، ثم جلسنا الى المائدة ، وكان هولمز بادى البشر ، وكنت أنا شديد الفضول . أما فيلبس فكان مقطب الجبين . ولما رفع هولمز الغطاء عن دجاج بالبهار ، قال :

— إن مسز هدسن قد راعت المناسبة ... ان مطبخها محدود ، ولكنها تعرف كيف تتقن طعام الفطور ... ماذا لديك ياواطسن !

ـ لحم خنزير مقدد وبيض

ـ حسن ، وأنت ماذا تأكل يامستر فيلبس ؟ دجاجة بالبهار أم بيضاً ؟

ـ شكراً لك ، لا أريد أن آكل شيئاً .

ـ هيا هيا ... جرب لون الطعام الذى أمامك

ـ شكراً لك ، انى حقا لا أشعر برغبة فى الطعام

ـ إذن ساعدنى ... لعلك لاتمانع ...

ولما رفع فيلبس الغطاء ، صاح صيحة دهشة ، ومكث لحظة يحدق فى الطبق الذى أمامه وقد شحب وجهه ، فقد كان فى وسط ذلك الطبق اسطوانة صغيرة من ورق يميل الى الزرقة ، فتناولها وكاد يلتهمها بعينيه ، ثم أخذ يرقص فى الغرفة كأنما أصابته جنة ، وبعدئذ ارتمى على كرسى منهك القوى . . .

وقال هولمز :

ـ لم يكن جميلا منا أن نفاجئك هكذا !..

فتناول فيلبس يده وقبلها ، وصاح قائلا :

ـ بارك الله فيك ! لقد أنقذت شرفى !

ـ إن شرفى أيضا كان فى خطر كما تعلم ! أؤكد لك انى أكره أن أفشل فى قضية ما بقدر ما كرهت أنت ان تضيع منك وثيقة هامة !

ووضع فيلبس الوثيقة النفيسة فى جيب سترته الداخلى ، ثم قال :

ـ إنى لا أجرؤ أن أفسد عليك فطورك ، ولكنى أكاد أموت شوقا الى الوقوف على مافعلت ، حتى استرددت المعاهدة

فتجرع هولمز فنجان قهوة ، ثم عمد إلى لحم الخنزير المقدد والبيض ، وبعدئذ قام وأشعل غليونه ، وجلس على كرسيه ، وقص علينا ما حدث قال :

ـ سأخبركما بما فعلته أولا . . . بعد أن تركتكما بالمحطة ، مشيت فى بقعة جميلة ، حتى وصلت الى قرية صغيرة تدعى ريبلى ، فتناولت القهوة فى نـزُل بها . واحتطت لنفسى فملأت قارورة بالماء ، ووضعت بعض الشطائر «الساندويتش» فى جيبى . ومكثت فى تلك القرية حتى حل المساء ، وعندئذ عدت الى ووكنج ، ووجدت نفسى أسير ثانياً فى الطريق العمومية خارج دار « بريابرى » عقب المغرب مباشرة

« وانتظرت حتى خلت الطريق من السابلة ، وهى على أى حال طريق غير مطروقة كثيراً ، ثم تسلقت السياج المحيط بحديقة الدار »

— ألم يكن باب الحديقة مفتوحاً ؟

— أجل ، ولكن لى مزاجى الخاص فى هذه الأحوال

ثم استطرد هولمز قائلا :

— اخترت المكان الذى به أشجار الصنوبر الثلاث ، واستظللت بها بحيث لا يستطيع أحد بداخل الدار أن يرانى ، ثم زحفت بالجانب الآخر بين الأعشاب ، حتى وصلت الى المكان المواجه لنافذة حجرتك حيث اختبأت

« وكان ستار النافذة مرفوعاً ، فأمكننى أن أرى مس هاريسون وهى جالسة إلى المائدة تقرأ ، وعند الساعة العاشرة والربع تركت الكتاب الذى كانت تقرأ فيه ، وأغلقت ضلف النافذة ، وغادرت الغرفة ، وقد سمعتها وهى تغلق الباب ، وأيقنت أنها أغلقت قفل الباب بالمفتاح من الخارج »

وهنا سأله فيلبس : « بالمفتاح ؟ »

فأجابه هولمز : « أجل ، فانى كنت قد طلبت منها مؤكداً أن تغلق الباب من الخارج وأن تأخذ معها المفتاح حين تأوى الى غرفة نومها ، وقد نفذت تعليماتى حرفياً ، ولولا معاونتها إياى لما استعدت هذه الوثيقة التى بجيبك الآن ، وهكذا ذهبت إلى غرفتها ، ومكثت متربصاً بين الأعشاب

« وكان الجو صافياً ، ولكن الرقابة متعبة ، فقد كنت أشبه بالصياد الذى ينتظر صيده . وطال بى الانتظار ، وكانت ساعة الكنيسة فى ووكنج تدق أرباع الساعة بانتظام ، ولكن خيل لى أنها توقفت إذ طال علىّ الزمن . وأخيراً ، عند الساعة الثانية صباحاً ، سمعت فجأة صوت مزلاج يزاح ، ومفتاح يتحرك فى قفل ، وبعد لحظة فُتح باب الخدم ، وخرج منه مستر جوزيف هاريسون ، فبان لى بوضوح فى ضوء القمر »

وهنا صاح فيلبس قائلا : « جوزيف ؟ ! »

واستطرد شرلوك هولمز قائلا :

— وكان عارى الرأس ، وعلى كتفه عباءة سوداء ، ليخفى وجهه بطرفها إذا بوغت ، ومشى على أطراف أصابع قدميه فى ظل السور ، حتى إذا بلغ نافذة حجرتك ، أخرج سكيناً عالج بها النافذة حتى فتحها ودخل



« ولما رفع فيلبس الغطاء ، صاح صيحة دهشة ، ومكث لحظة يحدق فى الطبق . . »

« وكنت أرى من مخبأى حركاته بداخل الغرفة ، وقد أشعل شمعتين كانتا على رف الدفأة ، ثم راح يقلب طرف السجادة المجاور للباب ، وانحنى على الأرض ، ثم رفع لوحاً كما يفعل السباك حين يريد الوصول الى مفتاح أنابيب الغاز ، ثم أخرج من هذا المخبأ اسطوانة صغيرة من الورق ، وبعدئذ أعاد اللوح إلى مكانه من الأرض ، وسوى طرف السجادة كما كان ، ثم أطفأ الشمعتين ، وخرج من النافذة كما أتى ، وإذا به يقع بين ذراعي . . .

« ولم أكن ادرى انه شرير الى ذاك الحد ، فقد هجم عليَّ بالسكين التى معه ، وصددت هجومه مرتين ، ولم أتغلب عليه إلا بعد أن جرحت يدى . ولا شك انه كان يريد قتلى ، ولكنه لما قهر ، أذعن لى ، وسلمنى الوثيقة المسروقة . ولما صارت فى يدى أخليت سبيله . غير انى أبرقت صباح اليوم الى فوربس بتفاصيل المسألة ، وإذا أسرع استطاع أن يقبض عليه . ولكنى أحسبه سيجد العش خاليا من الطائر حين يصل اليه ... ولعل هذا خير للحكومة . فلعل اللورد هولد هيرست من جهة ، والمستر برسى فيلبس من جهة أخرى ، يؤثران أن لا يعرض الموضوع على محكمة ... »

ولما انتهى شرلوك هولمز من كلامه ، صاح فيلبس قائلا :

— رباه ! هل كانت المعاهدة المسروقة فى حجرتى طول تلك الأسابيع العشرة التى مكثت فيها مريضا معذبا ؟

— هذه هى الحقيقة !...

— وجوزيف ... جوزيف لص شرير !

— أحسبه أخطر مما يدو مظهره ، وقد دلتنى المعلومات التي جمعتها عنه صباح اليوم ، أنه خسر ثروة فى المضاربة بسوق الأوراق المالية ، وأنه أهل لأى جريمة تتيح له استعادة أمواله . ولما كان رجلا ذا أثرة ، فانه قد انتهز الفرصة التي سنحت له ، دون أن يبالى بسعادة أخته ، أو مستقبل خطيبها

فجلس برسى فيلبس فى مقعده خائر القوة وقال :

— أشعر كأن رأسى يدور ، فان ما قلته لى أذهلنى حقاً !

وقال شرلوك هولمز بطريقته القائمة على التحليل والاستنتاج :

— إن الصعوبة الكبرى فى مسألتك كانت وجود قرائن كثيرة ، وقد أدت كثرتها الى اخفاء المهم منها غير المهم ، فكان علينا أن ننتقى من بين الوقائع المختلفة ما هو ضرورى ثم نرتبه بحيث تتضح لنا سلسلة الحوادث : لقد ارتبت فى جوزيف ، منذ علمت منك انك كنت معتزماً العودة معه بالقطار فى تلك الليلة ، وانه كان من المحتمل أن يمر عليك بالمكتب فى طريقه . ولما سمعت منك أن أحداً من الناس أراد أن يقتحم غرفة نومك ، اتجهت شكوكى الى جوزيف ، لأنه هو وحده الذى يمكن أن يكون قد أخفى بها شيئاً ، وأنت قد ذكرت لى انه كان يبيت بتلك الغرفة قبل أن تمرض فتخصص لك ، وقد أصبح شكى يقيناً ، حين حاول ذلك فى أول ليلة نمت فيها وحدك دون ممرضة بالغرفة ، فقد دلنى ذلك على أن ذلك الشخص من العارفين بدخائل الدار

فقال فيلبس :

— ما كان أغفلنى !

— إن وقائع المسألة كما تبدت لى هى هذه : لقد دخل جوزيف هاريسون مكتبك من الباب الذى يقع بشارع تشارلس ، ولما كان يعرف الوزارة ، فقد دخل غرفتك فى اللحظة التي غادرتها فيها ، ولما لم يجد أحداً هناك ، دق الجرس . وفى اللحظة نفسها لمح الورق الذى على المكتب ، فأدرك من أول نظرة أن القدر قد وضع فى طريقه وثيقة ذات قيمة بالغة ، فلم يتردد فى وضعها بجيبه ، وذهب لايلوى على شىء ، وتذكر أنه قد انقضت دقائق قبل أن توقظ أنت الحاجب ، ثم يلفت نظرك إلى دق الجرس ، وكانت تلك الدقائق كافية لأن يهرب اللص خلالها

« وبعد ذلك سافر إلى ووكنج بأول قطار ، ولما فحص الغنيمة واستوثق من أهميتها ، خبأها فى ذلك المكان الذى حسبه أميناً ، على أن يخرجها منه بعد يوم أو يومين ، ليذهب بها إلى السفارة الفرنسية ، أو أية جهة غيرها ، تدفع عنها ثمناً غالياً . ثم عدت أنت فجأة إلى البيت ، وأخرج هو من غرفته دون سابق إنذار ، ومنذ ذلك الحين كان بالغرفة اثنان على الأقل ، فلم يستطع إخراج كنزه من مخبئه . وكاد ذلك يذهب بعقله . وأخيراً حسب أن الفرصة

قد واتته ، ولكنك كنت متيقظاً نخيبت أمله . . . وأنت تذكر أنك فى تلك الليلة لم تتجرع الدواء المنوم كالمعتاد »

— أذكر ذلك

— ولعله كان قد عمل على زيادة أثر ذلك الدواء ، وعلى ذلك اطمأن إلى أنك لن تشعر به إذا اقتحم الغرفة . . . وطبعاً أدركت أنا أنه سيكرر محاولته هذه حين يستطيع ذلك آمناً . ثم غادرت أنت الغرفة وسافرت إلى لندن ، فرأى فى ذلك فرصة مواتية . وقد طلبت إلى مس هاريسون أن تلازم الغرفة طول اليوم حتى لا يسبقنا ، ثم جعلته يعتقد أن الطريق قد خلت له ، فى حين كنت أرقب وأتربص كما ذكرت . . وكنت قد أدركت أن المعاهدة المسروقة موجودة فى تلك الحجرة ، ولكنى لم أرد أن أبحث عنها ، ولذا تركته يخرجها من مخبأها ، ووفرت على نفسى جهداً كبيراً . . . والآن هل هناك أية نقطة أخرى تريد أن تسأل عنها ؟

فقلت له :

— لماذا حاول أن يفتح النافذة عنوة من الخارج فى الليلة الأولى ، فى حين كان يستطيع أن يدخل من الباب ؟

— لو أنه أراد الوصول الى الباب ، لوجب عليه أن يمر على سبع غرف نوم ، ومن جهة أخرى، كانت النافذة تمكنه من الخروج الى الحديقة بسهولة، هل من سؤال آخر ؟

فقال له فيلبس :

— ربما لم يكن يقصد قتلى ، ولم تكن السكين فى يده إلا أداة لفتح النافذة

فهز هولمز كتفه وقال :

— قد يكون الأمر كذلك . . . ولكنى واثق أن مستر جوزيف هاريسون رجل لا يمكن الاعتماد على شفقته . . .

سادة رجعيت

-٦-

كان ذلك قبل أن يستعيد صديقى شرلوك هولمز صحته ، بعد ما أصابه من إعياء ، إثر إجهاد عاناه فى ربيع سنــة ١٨٨٧ . ففى يوم ١٤ ابريل من تلك السنة ، تسلمت برقية من ليون ، تنبئنى بأن صديقى فى فراش المرض بفندق دولون ، ولم تمض أربع وعشرون ساعة ، حتى كنت الى جانب فراشه ، وقد اطمأننت إذ لم أجده يعانى مرضاً خطيراً ، غير أن بنيته القوية كانت قد تأثرت من الجهد العظيم الذى بذله فى إحدى القضايا مدة شهرين متواليين ، كان فى أثنائهما يشتغل خمس عشرة ساعة فى اليوم ، وكثيراً ما كان يواصل العمل خمسة أيام متتالية دون راحة . ولم ينقذه الفوز الذى ناله فى هذه القضية ، من رد الفعل الناشىء من شدة الاجهاد . وفى الوقت الذى كانت أوربا كلها ترددا اسمه ، وكانت غرفته مملوءة ببرقيات التهنئة ، كان هو فريسة لأشد أنواع الكآبة والغم . ولم يرفع من قواه المعنوية ، علمه بأنه قد نجح حيث فشل بوليس ثلاث دول ، وانه قد فاز على أعظم محتال شهدته أوروبا فى جميع الأزمان

وبعد ثلاثة أيام عدنا معاً الى بيكر ستريت ، ولكن كان من الواضح انه محتاج الى تغيير ، وقد كنت أميل أنا أيضاً الى قضاء أسبوع فى الريف ، فقد كنت فى حاجة الى الراحة . وكان صديقى القديم ، الكولونيل هايتر ، الذى عالجته حين كنت طبيباً للجيش فى أفغانستان ، قد اتخذ لنفسه داراً بالقرب من ريجيت ، فى إقليم « سرى » ، وكثيراً ما دعانى لأن أمضى أياماً فى زيارته ، دون أن تتاح لى فرصة لتلبية هذه الدعوة ، وفى آخر مرة قابلنى فيها ، قال لى انه يسره لو جاء صديقى معى . وكنت محتاجاً الى شىء من اللباقة لكى أقنع هولمز بذلك ، غير أنه سرعان ما قبل تلك الدعوة ، حين علم ان الكولونيل عزب ، وانه سيستمتع فى بيته بكامل حريته . و كذا لم يمض أسبوع على عودتنا من ليون ، حتى كنا فى بيت الكولونيل هايتر فى الريف . وكان هايتر من كرام رجال الجيش ، وقد زار بلداناً شتى . فوجد فى هولمز رفيقاً يشاركه فى كثير من الميول والذكريات

وفى مساء اليوم الذى وصلنا فيه ، كنا جالسين بعد تناول العشاء ، فى غرفة الأسلحة ، وكان هولمز مستلقياً على أريكة ، فى حين كان هايتر يطلعنى على مجموعة من الأسلحة النارية ، وما لبث حتى قال فجأة :

— سآخذ معى أحد هذه المسدسات الى الطابق الأعلى للحيطة

فقلت له متعجباً :

— للحيطة ! وهل تخشى حدوث شيء ؟

— أجل ، فقد وقع أخيراً ما يبعث على الحذر فى هـذه الجهة : ففى يوم الاثنين الماضى حدث سطو على بيت الشيخ أكتون ، أحد كبار الملاك هنا . ولم يسرق شيء ذو قيمة كبيرة ، ولـكن اللصوص لا يزالون مطلقى السراح

فتنبه هولمز ، وسأل الـكولونيل :

— ألم يتركوا دليلا ينم عنهم ؟

— كلا ، ولـكنه حادث بسيط ، وهو من حوادث الريف التي لاتستحق اهتمامك يامستر هولمز ، بعد تلك القضية الدولية الهامة التى فزت فيها

فلوح هولمز بيده تواضعاً منه حيال هذا المديح ، وإن دلت ابتسامته على سروره منه . ثم قال :

— هل كان لذلك الحادث أية ظاهرة تلفت النظر ؟

— ما أظن ذلك . وكل ماحدث ان اللصوص اقتحموا المـكتبة ، ولـكن لم يفوزوا بطائل . وقد قلبوا المـكان كله رأساً على عقب ، دون أن يسرقوا شيئاً سوى مجلد عن « هومر » من تأليف بوب ، وشمعدانين من الفضة ، وفتاحة خطابات من العاج ، وبارومتر صغير ، وكرة خيط

فصحت قائلا :

— ياله من خليط من الأشياء !

وقال الـكولونيل :

— الظاهر انهم أخذوا ما وصلت اليه أيديهم

وقال هولمز :

— إن البوليس الريفى يجب أن يستنتج شيئاً من ذلك ... من الواضح ان ...

ولكنى رفعت أصبعى محذراً ، وقلت له :

— لا تنس أنك هنا للراحة ، فبالله لا تشرع فى تمحيص قضية جديدة ، فى حين لا تزال أعصابك ممزقة

فهز هولمز كتفيه مستسلماً ، وانتقل بنا الحديث الى موضوع آخر

ولكن شاء القدر أن يذهب نصحى عبثاً ، ففى صباح اليوم التالى تبدت لنا المسألة بشكل لا يمكن معه تجاهلها ، واتخذت زيارتنا للريف وجهة كان من المحال أن نتنبأ بها . فقد كنا نتناول طعام الفطور ، وإذا بالساقى يندفع الى الغرفة فى فزع ظاهر ، ويقول :

— لقد حدث حادث رهيب فى دار كننجهام ياسيدى

فصاح الكولونيل ، ويده ممسكة بفنجان الشاى :

— سرقة ؟

— حادث قتل ياسيدى !

— رباه ، من الذى قتل إذن ؟ الشيخ أم ابنه ؟

— لا هذا ولا ذاك ياسيدى ، ولكنه الحوذى ... لقد أطلق الرصاص على قلبه ، ولم ينطق بعد ذلك ببنت شفة

— ومن الذى قتله ؟

— اللص ياسيدى ... وقد مرق بعد ذلك كالسهم ، وكان قد دخل من نافذة « الكرار » ، فباغته وليم ، وما لبث هذا حتى لقى حتفه ، وهو يدافع عن متاع سيده

— فى أية ساعة حدث ذلك ؟

— فى الليلة الماضية ، حوالى الساعة الثانية عشرة

فقال الكولونيل ، وقد عاد يتناول فطوره فى هدوء :

— سنذهب إلى هناك قريباً

ولما خرج الساقى قال لنا :

— هذا أمر محزن ! إن الشيخ كننجهام هو كبير الملاك فى هذه المنطقة ، وهو رجل لطيف المعشر ، ولا شك أن هذا الحادث سيحزنه كثيراً ، فان القتيل مكث فى خدمته سنوات عديدة ، وكان خادماً أميناً . لا شك أن هذه

الجريمة من فعل اللصوص الذين اقتحموا بيت آكتون من قبل

فقال هولمز مفكراً :

— والذين سرقوا تلك المجموعة الفريدة من الأشياء ؟

— بالتأكيد

فاستطرد هولمز قائلا :

— قد تكون من الجرائم العادية ، ولكنها تبدو عجيبة لأول نظرة . فان المنتظر من عصابة لصوص تعيث فى الريف فساداً ، أن تبدل من منطقة عملها ، لا أن ترتكب جريمتين متواليتين فى ناحية واحدة ، وبين الأولى والثانية بضعة أيام . . . إنك حين تحدثت أمس عن ضرورة الحيطة ، عجبت من ذلك ، فقد كنت أظن أن هذه الجهة هى آخر جهة فى العالم يمكن أن تكون مسرحاً لأعمال اللصوص ، ولكن يبدو لى أنه لا يزال علىّ أن أتعلم كثيراً . . .

فقال الكولونيل :

— أظن أنه يوجد لص محلى ، فهو بالبداهة يقصد إلى بيتي آكتون وكننجهام ، لأنهما أكبر البيوت فى هذه الناحية

— وهل هما أغنى الأسر كذلك ؟

— كان ينبغى أن يكونا كذلك ، ولكن قامت بينهما منذ سنوات قضية استنزفت دماءهما ، فان الشيخ آكتون يطالب بنصف مزرعة كننجهام ، وقد وكل الطرفان محامين انهمكوا فى هذه القضية

فقال هولمز متثائباً :

— إذا كان المجرم من أهالى الناحية فلن يصعب ضبطه . . . اطمئن يا واطسن ، إنى لا أريد أن أتدخل فى الأمر

وهنا جاء الساقى يقول :

— مستر فورستر مفتش البوليس يا سيدي

ودخل رجل البوليس ، وكانت ملامحه تدل على الذكاء ، فحيا الكولونيل وقال :

— لعلى لا أتطفل ، ولكنى علمت أن مستر هولمز هنا

فأشار الكولونيل بيده الى صديق ، فانحنى له مفتش البوليس ، وقال هولمز ضاحكا :

— إن القدر يعاكسك يا واطسن . . .

ثم التفت الى مفتش البوليس وقال له :

— لقد كنا نتحدث عن هذا الحادث الأخير قبيل مجيئك ، ربما أمكنك أن تذكر لى بعض التفاصيل

ولما مال فى كرسيه إلى الخلف كعادته حين يصغى ، أدركت أن لا أمل فى ركونه الى الراحة

وقال المفتش :

— إننا لم نجد دليلا فى حادث السطو على بيت آل آكتون ، ولكن فى هذا الحادث الأخير لدينا أدلة عديدة . . . ولا ريب أن القاعل واحد فى الحالتين . . . لقد رآه البعض

— آه !

واستطرد مفتش البوليس يقول :

— أجل يا سيدى ، ولكنه هرب بخفة الغزال ، بعد أن أطلق مسدسه على وليم كيروان المسكين ، وقد رآه مستر كننجهام من نافذة غرفة النوم ، وأبصره مستر أليك كننجهام من الممر الخلفى ، وكانت الساعة الثانية عشرة والربع ، حين وقع الحادث . وكان مستر كننجهام قد أوى إلى فراشه ، فى حين كان مستر أليك يدخن غليونه وهو بثيابه المنزلية ، ثم سمعا الحوذى وليم يستغيث ، فهبط مستر أليك السلم ليرى ماحدث ، وكان الباب الخلفى مفتوحاً ، حتى إذا وصل إلى أسفل السلم ، رأى رجلين فى صراع شديد ، وما لبث أحدهما حتى أطلق رصاصة فسقط الآخر على الأرض ، وجرى القاتل فى الحديقة ، ثم تسلق السياج ، وأبصره مستر كننجهام من نافذة غرفة النوم وهو يجرى فى الطريق ، ولكنه غاب عن بصره وشيكا . أما مستر أليك فقد وقف الى جانب المصاب لعله يستطيع إسعافه ، وهكذا هرب المجرم دون أن يدركه أحد . ولسنا نعرف عن شكله إلا أنه متوسط القامة ، وأنه يرتدى ثياباً داكنة اللون ، غير أننا نقوم الآن بتحريات دقيقة ، فاذا كان غريباً عن المنطقة ، فاننا سنضع أيدينا عليه

وهنا سأله شرلوك هولمز :

ــ وماذا كان وليم يعمل فى ذلك المكان ؟ هل قال شيئاً قبل أن يجود بروحه ؟

ــ لم يقل كلمة واحدة . كان يسكن مع أمه فى بيت صغير ملحق ، وكان خادماً أميناً ، ولعله ذهب الى البيت الكبير ليستوثق من أن كل شىء على ما يرام ، فان السرقة التى كانت قد حدثت فى بيت أكتون ، جعلت الناس كلهم على حذر . ولا بد أن اللص كان قد فتح البـاب ـ وقد وجد القفل محطما ـ حين باغته وليم

ــ هل قال وليم شيئاً لأمه قبل أن يذهب الى الدار ؟

ــ انها امرأة هرمة صماء ولايمكن أن نستخلص منها شيئاً ، وقد أحدثت الصدمة دخلا فى عقلها ، وإن لم تكن من قبل كاملة العقل ... ولـكن هناك ظرفاً هاماً ، انظر الى هذا !

وأخرج من مفكرته قطعة ورق صغيرة ممزقة ، وبسطها على ركبته قائلا :

ــ لقد وجدنا هذه فى يد القتيل . ويظهر انها قطعة صغيرة قطعت من ورقة كبيرة . ويلاحظ ان الساعة المحددة فيها هى نفس الساعة التى لقى المسكين حتفه فيها . وربما انتزع القاتل بقية الورقة من يده ، وربما أخذ القتيل هذه القطعة من يد القاتل ، ويبدو من الكلام المكتوب انه موعد محدد للقاء

فتناول هولمز قطعة الورق ونظر اليها ملياً ، واستطرد مفتش البوليس يقول :

ــ فلنفرض أنها تحوى موعداً . . . صحيح أن وليم كيروان كان حسن السمعة ، ولـكن ربما كان على اتصال خفى باللص ، وربما لقيه هنا بناء على ذلك الموعد ، ولعله ساعده على اقتحام الباب ، ثم اختلفا معاً لسبب من الأسباب

وقال هولمز بعد أن فحص الورقة :

ــ إن هذه الـكتابة شائقة للغاية . . . وقد يكون الأمر أعمق غوراً مما حسبت !

وأسند رأسه إلى يديه ، وابتسم مفتش البوليس حيال الأثر الذى أحدثته هذه المشكلة فى نفس البوليس السرى المشهور

ثم قال له هولمز :

— إن ما ذكرته عن إمكان وجود تفاهم بين اللص والحوذى ، وكون هذه الورقة موعداً للقائهما ، هو شيء لا يعد مستحيلا . ولكن هذه الكتابة تفتح الباب . . .

وعاد الى الصمت ، ومكث بضع دقائق مستغرقاً فى التفكير ، ولما رفع رأسه دهشت إذ رأيت وجهه وقد زال عنه الشحوب ، واصطبغ بصبغة حمراء ، وعادت عيناه تشعان بنفس البريق الذى عهدته به قبل مرضه ، ثم وقف على قدميه بكل نشاطه السابق ، ثم قال :

— أريد أن أنظر فى بعض تفاصيل هذا الحادث ، فان فيه ظواهر شائقة . فاذا سمحت يا كولونيل فانى أتركك وصديقى واطسن هنا ، وأذهب مع المفتش لأستوثق من صحة خاطر خطر لى ، وسأعود اليكما بعد نصف ساعة

وبعد ساعة ونصف عاد مفتش البوليس وحده ، وقال :

— إن مستر هولمز فى الحقل فى الخارج يروح ويجىء ، وهو يريد أن نذهب نحن الأربعة معا الى بيت المستر كننجهام

— لماذا ؟

فهز مفتش البوليس كتفيه وأجاب :

— لا أدرى يا سيدى . . . على أنى أقول فيما بيننا ، إنى أحسبه لم يشف تماما من مرضه ، فقد رابنى مسلكه ، فضلا عن هياج أعصابه !

فقلت له :

— لا داعى لأن تزعج نفسك بهذا الشأن ، فقد تبينت دائما النبوغ فى غرابة أطواره !

فقال مفتش البوليس :

— إن بعض الناس يحسبون طريقته جنونية . . . على أنه يتعجل ذهابنا يا كولونيل فهيا بنا

وقد وجدنا هولمز يذرع الحقل رواحا وجيئة ، وذقنه مائل إلى صدره ، ويداه فى جيبى سراويله ، ولما رآنا قال لى :

— إن الأمر يزداد أهمية ! إن رحلتنا إلى الريف يا واطسن كانت فوزاً

مبينا ، وقد قضيت اليوم صباحا ممتعا

فقال له الكولونيل :

ــ هل ذهبت إلى مكان الجريمة ؟

ــ أجل . لقد قمنا أنا والمفتش ببعض الاستكشاف

ــ وهل من نجاح ؟

ــ لقد شهدنا أشياء شائقة للغاية ، وسأذكرها لك أثناء سيرنا معا . . . أولا رأينا فعلا جثة ذلك الحوذى المسكين ... لقد مات فعلا من طلقة مسدس كما قيل

ــ وهل كنت تشك فى ذلك ؟

ــ أوه . . . يحسن بالانسان أن يستوثق من كل شىء ، على أن بحثنا لم يذهب عبثا . . . وقد تحدثنا إلى مستر كننجهام وولده ، وقد استطاعا أن يحددا لنا بالضبط البقعة التي تسلقها اللص فوق سياج الحديقة عقب الحادث ، وهذه نقطة هامة جداً . . . ثم زرنا أمه المسكينة ، ولم نستخلص منها شيئا ، لأنها عجوز ضعيفة

ــ وماذا كانت نتيجة بحثكما ؟

ــ الايمان بأن الجريمة فريدة فى بابها ، وربما أدت زيارتنا الآن لدار كننجهام إلى جعلها أقل غموضا من قبل ... أحسبنا يا مفتش متفقين معا على أن قطعة الورق هذه التى تحوى موعد القتل بالضبط ذات أهمية كبيرة ؟

ــ إنى أعدها دليلا يا مستر هولمز

ــ إنها لكذلك ! إن الذى كتب هذه الورقة هو الذى استدرج وليم كيروان الى ذلك المكان الذى لقى فيه حتفه ، ولكن أين بقية هذه الورقة ؟

فقال المفتش :

ــ لقد فتشت فى الجهة كلها بحثا عنها دون جدوى

ــ لقد انتزعت الورقة الكاملة من يد القتيل ، وغفل القاتل عن تلك القطعة الصغيرة التي بقيت بها ، فلماذا اهتم أحد الناس بالحصول على تلك الورقة ؟ لأنها دليل اتهام له ؟ وماذا يفعل بها ؟ انه بالطبع يضعها فى جيبه فوراً ، دون أن يلحظ أن قطعة منها لا تزال فى يد القتيل . فاذا أمكننا أن نحصل على بقية

الورقة ، فاننا نقطع بذلك مرحلة كبيرة فى سبيل حل المشكلة

— أجل ، ولـكن كيف نصل الى جيب القاتل ، قبل أن نقبض عليه ؟

— حسناً ... انه أمر يستحق التفكير فيه على الأقل ... ثم هناك نقطة أخرى واضحة ، لقد أرسلت الورقة الى وليم ، والرجل الذى كتبها لم يسلمها اليه بنفسه ، وإلا لقال له ما يريده مشافهة ، فمن الذى أحضر الورقة اليه ؟ أم تراها أرسلت بالبريد ؟

فقال المفتش :

— لقد قمت بتحريات اتضح لى بعدها ان وليم تسلم خطاباً بعد ظهر أمس، وقد مزق هو الغلاف

فربت هولمز ظهر المفتش وقال له :

— هذا بديع ! لقد قابلت ساعى البريد ! ان من دواعى السرور أن يشتغل الانسان معك ! حسناً . هذا مسكن الحوذى ، وإذا أتيت معى يا كولونيل فانى أريك مكان الجريمة

ومررنا على الكوخ الجميل الذى كان القتيل يعيش فيه ، ومضينا فى طريق تظلله الأشجار ، حتى وصلنا الى بيت كبير عتيق ، وقادنا شرلوك هولمز ومفتش البوليس حوله ، حتى وصلنا الى باب جانبى يمتد أمامه جزء من الحديقة حتى يصل الى السور الذى يطل على الطريق العام . وكان هناك شرطى واقفاً بباب المطبخ . وطلب هولمز أن يفتح الباب ، ثم قال لنا :

— على هذا السلم وقف الشاب كننجهام ، ورأى الرجلين يتصارعان حيث نحن الآن ، وكان الشيخ كننجهام واقفاً بالنافذة التى هناك ـ الثانية الى اليسار ـ ورأى المجرم يهرب ، الى يسار تلك الشجرة تماماً ، وكذلك رأى الابن ذلك اللص أثناء فراره . والاثنان واثقان من ذلك لوجود الشجرة هناك . ثم خرج مستر أليك وركع الى جانب الجريح ، والأرض يابسة جداً كما ترون ، ولذا لا توجد عليها آثار أقدام

وإذ كان يكلمنا هكذا ، تقدم نحونا رجلان من داخل البيت أحدهما شيخ ظاهر القوة ، والثانى شاب جرىء ، كان يبتسم لنا ابتسامة لا تتفق مع المهمة التى جئنا من أجلها ... وقال لهولمز :

ــ ألا تزال تفحص ؟ لقد حسبت أن أهالى لندن لا يخطئون أبداً ... غير انه لا يدو عليك انك تتقدم بسرعة فى بحث هذه المسألة

فرد عليه هولمز بلطف :

ــ يجب أن تترك لنا متسعاً من الوقت !

فرد الشاب أليك كننجهام :

ــ يبدو انك ستحتاج الى وقت كثير ، فليس لدينا أى دليل على القاتل !

وهنا قال له مفتش البوليس :

ــ هناك دليل واحد ... فاننا إذا وجدنا ... رباه ! ماذا دهاك يامستر هولمز؟ ذلك ان صديق المسكين بدا عليه فى تلك اللحظة إعياء شديد ، وسقط فجأة من بيننا ووجهه على الأرض ، ففزعنا من ذلك وحملناه الى المطبخ ، وأجلسناه على كرسى كبير وظهره مستند الى وسادة ، وأخذ يتنفس بصعوبة ... وبعد بضع دقائق وقف ، واعتذر لنا فى خجل وقال :

ــ إن الدكتور واطسن يشهد بأنى لم أقم من مرضى إلا أخيراً .. وأنا عرضة لهذه النوبات العصبية المفاجئة

فقال له الشيخ كننجهام :

ــ ألا ترى أن تركب عربتي فى طريق عودتك ؟

ــ شكراً لك ، ولـكن ما دمت هنا ، فانى أريد أن أستوثق من نقطة واحدة

ــ ما هى ؟

ــ يبدو لى ان وليم المسكين لم يأت قبل دخول اللص الى البيت ، بل بعد ذلك ، ويبدو لى انك تعتقد أن اللص لم يدخل البيت ، وإن يكن الباب قد اقتحم !

فقال مستر كننجهام بلهجة الجد :

ــ أحسب أن هذا أمر واضح ، على أن ابنى لم يكن قد أوى الى فراشه، ولا شك انه كان يمكنه أن يسمع أية حركة

ــ وأين كان جالساً ؟

فرد الشاب قائلا :

— كنت جالساً أدخن فى غرفة الجلوس
— وأى النوافذ هى نافذة تلك الغرفة ؟
— الأخيرة الى الشمال ، وهى التالية لنافذة غرفة أبى
— وبالطبع كان المصباح فى كل من الغرفتين مضيئاً ؟
— بلا ريب
فابتسم هولمز وقال :
— إنى أرى فى هذه المسألة بعض ظواهر غريبة ! أليس عجيباً مثلا أن يسطو لص مدرب على أحد البيوت ، فى حين يرى من الضوء المنبعث من نافذتين ، ما يدل على ان اثنين على الأقل ، من أفراد الأسرة مستيقظان ؟
— لا بد انه لص جرىء !
وقال مستر أليك :
— بالطبع ، لولا أن الحادث عجيب لما طلبنا معونتك ، أما عن قولك بأن اللص قد ارتكب السرقة قبل أن يأتى وليم ، فهذه فكرة سخيفة . أما كنا فى هذه الحالة نجد متاعنا غير مرتب ، وحاجاتنا مسروقة ؟
فقال هولمز :
— إن الأمر يتوقف على نوع الأشياء المسروقة ، ولا يفوتنا أنه لص غريب الأطوار . انظر مثلا الى الأشياء العجيبة التى سرقها من بيت أكتون : كرة خيط ، وثقالة ورق ، وما لا أدرى !
وهنا قال الشيخ كننجهام :
— إننا بين يديك يا مستر هولمز ، وكل ما تريده أنت أو يريده المفتش سينجز دون إبطاء ...
فقال هولمز :
— أريد منك يا مستر كننجهام ، أول كل شىء ، أن تعلن عن جائزة ، وأن يصدر الاعلان عنك لا عن البوليس ، لأن رجال البوليس قد يضيعون وقتاً طويلا قبل أن يتفقوا على قيمة الجائزة . وقد كتبت هنا صيغة الاعلان ، وأرجوك أن توقعه ... وقدرت الجائزة بخمسين جنيهاً ، وأحسبه مبلغاً كافياً
فتناول مستر كننجهام الورقة وقلم الرصاص منه وهو يقول :
— كنت أود لو كانت الجائزة خمسمائة جنيه ...

ثم قرأ ما كتبه هولمز وقال :

ــ إن فى هذا الاعلان خطأ يامستر هولمز

ــ لقد كتبته على عجل !

ــ إنك قد بدأت الاعلان بقولك : « حدث فى الساعة الواحدة إلا ربعا من صباح يوم الثلاثاء الماضى ... الخ » والواقع أن الساعة كانت الثانية عشرة إلا ربعا

وقد خجلت من الخطأ الذى وقع فيه صاحبى ، لأنى كنت أعهد فيه الدقة البالغة ، ولا شك انه ناشىء من المرض الذى اعتراه أخيراً ، وبان عليه الارتباك لحظة ، فى حين قطب مفتش البوليس ، وانفجر الشاب أليك ضاحكا ... على أن الشيخ كننجهام صوب الخطأ ، وأعاد الورقة الى هولمز قائلا :

ــ انشرها فى الصحف بأسرع ما يمكن ... انى أراها فكرة صائبة

فوضع هولمز الورقة فى جيبه بعناية ، ثم قال :

ــ والآن يحسن بنا أن ندخل البيت ، وأن نستوثق من أن اللص لم يسرق شيئاً

وقبل أن ندخل البيت ، فحص هولمز الباب الذى اقتحم ، وكان واضحاً أن إزميلا أو سكيناً قد أدخل فى القفل لزحزحته الى الخلف عنوة ، فقد رأينا علامات فى الخشب تدل على ذلك

وقال هولمز للشيخ كننجهام :

ــ إذن أنتم لا تستخدمون مزلاجاً لايصاد الباب ؟

ــ كلا لم نجد قط ضرورة لذلك

ــ أليس لديكم كلب للحراسة ؟

ــ أجل ، ولكنه يبقى مقيداً فى الجانب الآخر من الدار

ــ ومتى يأوى الخدم الى فراشهم ؟

ــ حوالى الساعة العاشرة

ــ إنى أفهم من ذلك أن وليم أيضاً كان ينام حول هذه الساعة !

ــ أجل

ــ من المدهش أنه فى تلك الليلة بالذات كان مستيقظاً ! والآن أرجو أن ترينا المنزل يامستر كننجهام

ومضينا جميعاً فى ممر ينتهى الى المطبخ ، ثم صعدنا سلماً خشبياً إلى الطابق الأول ، وفى نهاية السلم « بسطة » تؤدى إلى سلم آخر أ كثر زخرفة ، يؤدى إلى الردهة الأمامية ، وهناك غرفة الجلوس وعدة غرف للنوم ، تشمل غرفتي مستر كننجهام وولده . وسار هولمز ببطء ، وهو يمعن النظر فى تكوين البيت . وقد دلنى التعبير البادى على ملامحه ، على أنه وراء أثر يتبعه ، وإن لم أدر ما هو . . وما لبث مستر كننجهام أن قال له :

— ياسيدى العزيز : إن هذا كله جهد لا ضرورة له . . . هناك غرفتى فى نهاية السلم ، والغرفة التى بعدها هى غرفة ولدى ، وأنا أترك لتقديرك ما إذا كان اللص قد جاء إلى هنا دون أن نشعر به !

وقال الابن وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :

— يجب أن تبحث لعلك تهتدى إلى أثر جديد !

فرد هولمز قائلا :

— مازلت أرجو مزيداً من الصبر ، فأنا مثلا أود لوعرفت مدى إشراف نوافذ غرف النوم على الواجهة

وفتح باباً وقال :

— هذه على ما أظن غرفة ابنك ، وتلك على ما أعتقد غرفة الجلوس التي كان جالساً بها حين سمع الاستغاثة . . . علامَ تطل نافذة هذه الغرفة ؟

ومضى عبر غرفة النوم ، وفتح الباب المؤدى إلى الغرفة الأخرى ، ثم قال له مستر كننجهام :

- أحسب أن بالك قد ارتاح الآن ؟

— شكراً لك . لقد رأيت كل ما أردت رؤيته

— والآن يمكننا أن نذهب إلى غرفتى ، إذا كان هذا ضرورياً

— إذا لم يكن فى ذلك ما يضايقك !

فهز مستر كننجهام كتفيه ، وقادنا إلى غرفته ، وكانت بسيطة الأثاث ، ولما مشينا بها فى اتجاه النافذة ، تراجع هولمز حتى صرنا أنا وهو فى مؤخرة الجماعة ، وكان عند قدم السرير منضدة صغيرة مربعة عليها صفحة مملوءة برتقالا وقارورة ماء ، ولما مررنا بها دهشت إذ مال هولمز فوقها وأسقطها بما عليها

ـ عمداً ـ على الأرض ، وتحطم الزجاج قطعاً لا تحصى ، وتدحرج البرتقال الى كل ركن بالغرفة ، ثم صاح بى قائلا :

ـــ إنها غلطتك يا واطسن ! .. لقد أفسدت البساط !

فتظاهرت بالارتباك ، وانحنيت على الأرض ، وأخذت ألتقط الفاكهة ، وقد أدركت أن صديقى ـ لسبب ما ـ أراد أن ينسب إلىّ ما فعله ، وأخذ الآخرون يساعدوننى ، ويضعون المنضدة فى مكانها

وما لبث مفتش البوليس أن صاح قائلا : « أين هو ؟ »

وكان هولمز قد اختفى دون أن يشعر أحد بذهابه ، ثم قال الشاب أليك كننجهام :

ـــ انتظروا هنا لحظة ... انى أعتقد أن ذلك الرجل به دخل فى عقله ... تعال معى يا أبى لنرى الى أين ذهب

وخرجا من الغرفة مسرعين ، وتركانى مع المفتش والكولونيل متسائلين متعجبين ، ثم قال مفتش البوليس :

ـــ حقاً انى أشارك مستر أليك فى رأيه ... وربما كان ذلك من تأثير المرض الذى أصابه ...

ولكنه لم يتم كلامه ، فقد ترددت فى البيت صيحة استغاثة ، وعرفت صوت هولمز وهو يصرخ : « النجدة ... النجدة ... القتلة ! » ، ففزعت واسرعت الى مصدر الصوت ، وكانت صيحات النجدة قد انخفضت عن ذى قبل ، وكانت منبعثة من الغرفة التي دخلناها أولا ، واندفعت الى غرفة الجلوس ، فوجدت كننجهام وابنه وقد انحنيا فوق جسم هولمز وهو ممدد على الأرض ، وكان الابن قد أمسك برقبته بكلتا يديه ، بينما كان الأب يلوى احدى يديه . وانقضضنا عليهما نحن الثلاثة ، فدفعناهما بعيداً عنه ، ووقف هولمز على قدميه مترنحاً يلهث وهو شاحب الوجه ، وصاح بمفتش البوليس قائلا :

ـــ اقبض على هذين !

ـــ بأية تهمة ؟

ـــ بتهمة قتل حوذيهما وليم كيروان

فحملق مفتش البوليس فيه مندهشاً وقال له :

— رويدك يامستر هولمز ... انى واثق أنك لا تعنى ما تقول

فصاح به هولمز :

— انظر الى وجههما يارجل !

والواقع ان ملامح وجههما كانت فى تلك اللحظة قد انطبع عليها اعتراف صريح بجرمهما الفظيع وبدا الأب كأنما تسمر فى مكانه ، فلا يستطيع حركة ولا قولا ، أما الابن فقد ولى عنه مظهر الغطرسة والغرور ، وصار أدنى الى وحش محبوس فى قفص . ولم يقل مفتش البوليس شيئاً ، وإنما ذهب الى الباب ونفخ فى صفارته ، فجاء اثنان من الشرطة ، وقال لمستر كننجهام :

— ليس لى خيار يامستر كننجهام ... وآمل أن يكون فى الأمر خطأ ...

وكان الابن قد أخرج من جيبه مسدساً ، فصاح به مفتش البوليس :

— حذار .. ارمه !

وضربه بيده ضربة قوية سريعة ، فسقط المسدس على الأرض ، ووضع هولمز قدمه عليه ، وقال للمفتش :

— احتفظ بهذا المسدس ، فانه سيفيد فى المحاكمة ... ولكن هذا ما نريده فعلا !

وأمسك بقطعة من الورق قد تثنت «تكرمشت» ، فقال له المفتش متسائلا :

— بقية الورقة ؟

— أجل

— وأين كانت ؟

— لقد وجدتها حيث كنت أتوقع وجودها ، أعتقد يا كولونيل أنه يمكنك أنت وواطسن أن تعودا الآن ، وسأرجع اليكما بعد ساعة على الأكثر ، فانى والمفتش يجب أن نتحدث قليلا مع السجينين ، وسألحق بكما وقت الغداء

وقد وفى شرلوك هولمز بوعده ، إذ لحق بنا فى الساعة الواحدة ، وكان معه رجل وجيه صغير القد ، قدمه لى على انه مستر أكتون ، الذى سرق بيته أول مرة ، وقال هولمز :

— لقد أردت أن يكون مستر أكتون حاضراً وأنا أشرح لكم خفايا هذه المسألة ، لأنها بالطبع تهمه كثيراً ، وأخشى يا عزيزى الكولونيل أن تأسف على أن أدخلت فى بيتك طائر سوء مثلى ...



« وأمسك الابن برقبته بكلتا يديه ، بينما كان الأب يلوى احدى يديه »

فقال الكولونيل بحرارة :

— بالعكس . انى أشعر بسعادة إذ أتيح لى أن أشهد طريقتك الفريدة عن كثب ، وأنا أعترف بأنها فاقت ما كنت أنتظر ، وانى لا أدرى كيف وصلت فى هذه المشكلة الأخيرة الى النتيجة التي انتهيت اليها

— أخشى أن يكون إيضاحى مخيباً لأملك ، ولكنى اعتدت أن لا أخفى شيئاً من طريقتي ، سواء عن صديقى واطسن ، أو عن أى شخص آخر يهتم بها . ولكنى ما زلت متأثراً من الضرب الذى نلته فى غرفة الجلوس ، ولذا سأستعين أولا بكأس من البراندى ياعزيزى الكولونيل ، لقد امتحنت صحتى فى المدة الأخيرة

فقلت له :

— أرجو ألا تحدث لك نوبة عصبية كالتى حدثت لك اليوم !

— سيأتى دور الكلام عن ذلك ، وسأشرح لكم ماحدث بالترتيب ، وأبين لكم النقط المختلفة التىهدتنى الىتكوينرأيى ، وإذا أشكل عليكم شىء ، فأرجو أن تسألونى عنه

وسكت لحظة ثم قال :

— إن أهم ما فى فن البوليس السرى هو أن يميز بين ما هو حيوى وما هو عرضى من الوقائعالعديدة المختلفة ، وبدون ذلكيتبدد جهد الانسان بدلا من أن يتركز . وفى هذه المسألة ، لم يتطرق الى نفسى منذ البداية أى شكفى أن مفتاح المشكلة كلها هو قطعة الورق التى وجدت فى يد القتيل

«على انى قبل أن أسهب فى ذلك ، ألفت نظركم الىأنه لو كان ماقاله أليك كننجهام صحيحاً ، ولو كان القاتل قد هرب فعلا عقب إطلاقالرصاص علىوليم كيروان ، لما كان القاتل هو الذى انتزع الورقة من يد القتيل . وإذا لم يكن هو الذى انتزعها ، فلا بد أن يكون أليك كننجهام نفسههو الذى فعل ذلك ، لأنه فى الوقت الذى هبط فيه الشيخ ، كان عدد من الخدم قد وصل الىمكان الجريمة . ان هذه نقطة بسيطة ، ولكن مفتش البوليس غفل عنها ، لأنه افترض منذ البداية أن كبراء الريف هؤلاء ليست لهم يد فى الجريمة . أما أنا فانى أبدأ عملى دائماً مستقل الفكر عن كل اعتبار ، وأهتدى بالوقائع كما تسير

بى ، ولذا وجدت نفسى منذ المرحلة الأولى من مراحل التحقيق ، أتساءل عن الدور الذى لعبه إليك كننجهام

« ثم فحصت قطعة الورق التى وجدت بيد القتيل ، فحصاً دقيقاً . وقد أدركت تواً انها جزء من وثيقة هامة . ها هى ذى ، ألا ترون فيها شيئاً يسترعى الالتفات ؟ »

فنظر اليها الكولونيل ملياً ، ثم قال :

ـــ إنها تبدو غير منتظمة الكتابة

فقال هولمز :

ـــ ياسيدى العزيز : لا يوجد أدنى شك فى أن شخصين قد كتبا كلماتها بالتناوب ، وما عليكم إلا أن تقارنوا الحروف بعضها ببعض ، فضلا عن عدم انتظامها وحشر بعض الكلمات

ـــ صدقت . ولكن لماذا يكتب شخصان معاً خطاباً واحداً بهذا الشكل ؟

ـــ لغرض سىء بالطبع ، ولاريب أن أحد الاثنين كان سىء الظن بالآخر ، ولذا أصر على أن يشركه فى الكتابة ، ليقتسما تبعتها لو ظهرت الحقيقة ! ولا شك أن أحد الاثنين اللذين كتبا هذه الورقة كان أقوى من الآخر يداً وعزيمة

فسأله الكولونيل : « وأنى لك أن تعرف ذلك ؟ »

ـــ من اختلاف الحروف ياسيدى ، والرجل الأقوى بينهما قد كتب أولا تاركا بين الكلمات فراغاً ليملأه الآخر بما يكمل المعنى . ولاريب أن ذلك الرجل الأقوى هو الذى دبر المكيدة

فصاح مستر أكتون قائلا : « بديع ! »

وقال هولمز :

ـــ ولكن هذا شىء سطحى ، والآن نأتى الى نقطة هامة ... لعلكم لا تعلمون أن الخبراء قد توصلوا الى معرفة سن الشخص من خط يده ، وفى الأحوال العادية صار فى إمكان أحدهم أن يقدر العقد « السنوات العشر » الذى يمر به عمر الانسان . أقول « فى الأحوال العادية » ، لأن المرض والضعف الجثمانى قد يحدثان مايحدثه كبر السن من أثر ، حتى ولو كان المريض فى مقتبل العمر . وفى هذه الحالة ، إذا نظرنا الى الخط الذى كتبته اليد القوية

لأحد الشخصين ، ثم الى الخط الذى كتبته اليد المتخاذلة للشخص الآخر ، أمكننا أن نقول أن الأول شاب ، وان الثانى قد تقدم به العمر

فصاح أكتون مرة أخرى : « بديع ! »

واستطرد هولمز قائلا :

ـــ ولكن هناك نقطة أخرى أدق من ذلك ، هناك وجه شبه بين الخطين ، برغم شدة اختلافهما ، فهما خط اثنين بينهما صلة قرابة ، وهذا يبدو لكم فى التشابه بين كثير من الحروف المتماثلة الواردة فى كلمات كل منهما ... وأنا إنما أطلعكما على النتائج الرئيسية التى وصلت اليها من فحص هذه الورقة المكتوبة ، وهناك ثلاث وعشرون نقطة أخرى دلتنى كلها على أن الشيخ كننجهام وولده أليك هما اللذان كتبا هذه الورقة

« ولما وصلت الى هذا المدى ، كانت الخطوة التالية ـ طبعاً ـ هى أن أفحص تفاصيل الجريمة ، لأرى مقدار ما تعاونا به ، فذهبت الى البيت مع مفتش البوليس ، ورأيت فيه كل مايمكن أن يرى ، وكان الجرح الذى بجثة القتيل ، كما حققته ، ناشئاً من طلقة مسدس على مسافة تزيد عن أربع ياردات ، فلم يكن هناك سواد على الملابس من أثر البارود . وعلى ذلك فقد كذب أليك كننجهام ، حين زعم أن القاتل والقتيل كانا يتصارعان ، حين أطلق الأول الرصاص على الثانى . كذلك اتفق الأب والابن فى تحديد النقطة التى زعما ان القاتل قد فر منها الى الطريق العام ، ولكن الواقع إنه توجد عند تلك النقطة حفرة عريضة مبتلة القاع ، ولما لم أجد آثار أقدام فيها أيقنت بكذب الأب والابن ، وأنه لم يكن ثمة شخص ثالث !

« وكان علىّ أن أبحث عن الدافع الى هذه الجريمة الفريدة ، ولكى أصل الى ذلك ، كان علىّ أن أحاول قبل كل شىء ، حل مشكلة السرقة الأصلية التى وقعت ببيت المستر أكتون . وقد فهمت من بعض ما قاله لنا الكولونيل ، أن هناك دعوى قضائية قائمة بينك يامستر أكتون وبين آل كننجهام ، وخطر لى على الفور ، ان الذين اقتحموا غرفة المكتبة فى دارك ، إنما أرادوا أن يحصلوا على مستند ذى أهمية فى تلك الدعوى »

وهنا قال مستر أكتون :

ـــ هذه هى الحقيقة ، ولا يوجد أدنى شك فى حقيقة غرضهم ، ان لى حقاً

ثابتاً فى نصف مزرعتهم ، ولو أنهم سلبونى ورقة معينة ، لجردونى من أهم سلاح لى فى الدعوى . ولكنهم لحسن الحظ لم يصلوا اليها

فابتسم هولمز ثم قال :

— لقد كان ذلك مغامرة جريئة منهم ، تبينت فيها تهور الشاب أليك ، ولما لم يجدوا ما جاؤوا من أجله ، حاولوا أن يحولوا الشبهة عن أنفسهم ، بجعل الحادث يبدو كأنه حادث سرقة عاديه ، فأخذوا ما استطاعوا أن يضعوا أيديهم عليه عفواً ودون اختيار . ان هذا واضح كل الوضوح . ولكن بقى الكثير الذى ظل غامضاً ، وكان أهم ما أردت الحصول عليه هو الجزء الباقى من تلك الورقة ، وقد أيقنت أن أليك قد انتزع تلك الورقة من يد القتيل ، وكنت متأكداً تقريباً من أنه وضعها فوراً فى جيب جلبابه ، وإلا فأين يكون قد وضعها ؟ وبقى أن أتأكد مما إذا كانت لا تزال هناك ، وكان لا بد من بذل مجهود فى هذا السبيل ، ولذا ذهبنا جميعاً الى البيت

« وقد لحق بنا كننجهام وابنه عند المطبخ كما تذكرون ، وكان من الأهمية بمكان أن لا يذكرهما أحد بوجود تلك الورقة ، وإلا أتلفاها دون إبطاء ، وقد أوشك المفتش أن يذكر لهما أهميتها ، ولكن لحسن الحظ فاجأتنى فى تلك اللحظة نوبة عصبية غيرت مجرى الحديث ...

وهنا ضحك الكولونيل وصاح قائلا :

— رباه ! أتعنى انك اصطنعت تلك النوبة ، وأن قلقنا عليك فى تلك الساعة راح هباء ؟

وقلت أنا :

— من الوجهة الطبية ، أعترف بأنها كانت نوبة متقنة التقليد !

فابتسم هولمز وقال :

— إنه فن قد يفيد فى بعض الظروف ، ولما أفقت من تلك النوبة ، تحايلت حتى أغريت الشيخ كننجهام بكتابة بعض كلمات على الورقة ، لأضاهى حروفها على المكتوب على قطعة الورقة التى وجدت بيد القتيل ، ولذا تعمدت الخطأ فى كتابة ساعة وقوع الجريمة ، لكى يصوب ذلك الخطأ بخطه . . .

وهنا صحت قائلا :

— ما أغبانى !.. لقد أشفقت عليك من جراء ذلك الخطأ ، وحسبته من أثر مرضك الطويل !

فضحك هولمز وقال :

— آسف إذ جعلتك تتألم من أجلى . . . ثم ذهبنا معاً الى الطابق الأعلى ، ولما دخلنا غرفة الجلوس لمحت جلباب أليك معلقاً وراء الباب ، وبعد دقائق من ذلك ، شغلتهما بقلب المنضدة بما عليها ، وعدت الى تلك الغرفة لأبحث فى جيوب ذلك الجلباب عن الورقة المنشودة ، ولكنى لم أكد أستخرج الورقة من أحد الجيوب ، حتى انقض علىّ الشيخ كننجهام وولده ، وأمسك الشاب بخناقى ، بينما جعل أبوه يلوى معصمى ليأخذ منى الورقة ، ولولا سرعة نجدتكم إياى لفتكا بى . وقد أدركا أنى عرفت سر المشكلة ، فتبدل اطمئنانهما يأساً ، ولم يباليا فى يأسهما أن يقتلانى على الفور لو استطاعا

« وقد تحدثت بعد ذلك بإيجاز مع الشيخ كننجهام بشأن الدافع الى الجريمة ، وكان الشيخ طيِّعاً ، فى حين كان ولده شيطاناً ، يود لو يقتل أى إنسان لو استطاع الوصول إلى مسدسه

« ولما رأى الأب أن الأدلة كلها ضده ، فقد شجاعته ، واعترف اعترافاً كاملا ، والظاهر أن وليم كان قد تبع سيديه خفية ليلة سطوهما على بيت مستر آ كتون ، وأنه بعد ذلك صار يبتزمنهما المال مهدداً إياهما بالفضيحة ، ولكن مستر أليك لم يكن ممن يخضعون لمثل هـذا التهديد . وقد وجد فى حادث السرقة المزعومة التى أزعجت الأهلين فى هذه المنطقة ، فرصة للخلاص من الرجل الذى يهدده ، ولو أنه انتزع من يده الورقة كلها ، وزاد حيطة فى تدبيره ، لما كشف أمره قط »

وعندئذ سألت هولمز : « وماذا كان فى تلك الورقة ؟ »

فبسط هولمز قطعة ورق أمامنا ، وأضاف إلى ركن منها القطعة الصغيرة التي وجدت فى يد القتيل ، فانطبقت على مكانها ، وصارت الورقة كاملة ، وكانت دعوة إلى الحوذى وليم ، ليوافيهما فى البيت ، فى الساعة الثانيـة عشرة إلا ربعاً قبل منتصف تلك الليلة ، ليعطياه من المال ما طلب !

وبعد أن أتم هولمز شرحه قال لى : « إن إقامتنا فى الريف لم تذهب هباء ... فقد استعدت صحتي ونشاطى . . . وغداً نعود إلى بيكر ستريت يا واطسون »

هذه المذكرات البوليسية

هذه المذكرات البوليسية التى كتبها الروائى البوليسى الأشهر كونان دويل هى ست روايات ، أجراها هذا المؤلف على لسان الدكتور واطسون عن زميله وصديقه شرلوك هولمز . وكلا الزميلين الصديقين هما بطلا روايات كونان دويل التى اشتهرت فى عالم الروايات البوليسية بغرابة الحوادث ، وحل المعميات وكشف الأسرار ، والبراعة فى قوة التحليل ، ودقة الملاحظة والاستنتاج

وهى ليست مذكرات بالمعنى المعروف ، وإنما هى روايات كاملة وإن كانت قصيرة ، فكل رواية تتناول حادثاً بوليسياً عجيباً يهتم شرلوك هولمز بحل غوامضه وكشف أسراره حتى يصل الى المجرم الحقيقى بما أوتى من ذكاء خارق وملاحظة بارعة واستنتاج صادق يقوم على سلسلة متعاقبة من الحوادث مكونة من عدة حلقات متماسكة يربطها المنطق الصحيح ، ويؤيدها فى النهاية الواقع



وكل رواية من هذه الروايات الست التى تشتمل عليها هذه المذكرات نموذج بديع للرواية البوليسية التامة من حيث الغموض الذى يحيط بها فى البداية ، ولا يزال هذا الغموض يزداد خفاء كلما سرنا فى تفاصيل الحوادث ، ثم تنتهى الرواية إلى الوضوح الرائع بفضل ما يبذله شرلوك هولمز من جهد ذهنى وبراعة بوليسية مدهشة

ولا ريب أن مثل هذا النوع من الروايات يوقظ الانتباه ، ويروض الفكر على قوة الملاحظة والاستنتاج ، ويكشف للقارىء ألواناً من أحوال النفس الانسانية ، وأسرار الطبيعة البشرية ويقفه على كثير مما يقع من أحداث المجتمع الـ[illegible]ـث على الغرابة والتفكير ، علاوة على ما فيه من رياضة ذهنية وتدريب على سرعة البديهة ودقة البحث ، وسلامة المنطق ، والوصول الى الحقائق من طرقها الصحيحة مع التسلية والامتاع الذى يدفع القارىء الى قراءة الرواية للنهاية